iLovePDF

iLovePDF

عزيـز فِيـرم

الـفـارون إلـى الله

روايـــة

iLovePDF

جميع الحقوق محفوظة لصالح المؤلف

iLovePDF

الرّوايــة التــي بــين أيــدينا مــن نســج الخيــال، لا تمــت للواقــع بصــلة تــذكر، فمــا ورد فيهــا هــو مــن بنــات أفكــار المؤلــف، وكــل مــا فيهــا مــن أحــداث و أســماء و أمــاكن، لا ريب - إن حدث تشابه – فهو من قبيل الصدفة ليس إلا...

iLovePDF

يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)

(الآية رقم 56 من سورة القصص).

iLovePDF

كلام لا بد منه.....

- التّاريخ يعيشه الجميع ، و يكتبه المنتصْرون.

- الغـرض مـن كتابـة و عـرض هـذه الرّوايـة هـو اسـتنطاق الزمـان و المكـان والانسـان. ثـم الاسـتفادة مـن أحـداث تاريخيـة ربمـا حـدث معهـا تشـابه مـن خـلال روايتنـا هـذه ، ثـم الوصـول بهـا إلـى طريـق الحـقْ والخـلاص وبـرّ النّجـاة وشـاطئ الحرية المنشود .

فالتّاريخ،

كثيرا ما تتكرر حيثياته وتفصيلاته، على نحو مثير للغرابة و الدّهشة و الإبهار.

- إن أبشـع الأحـداث والظـروف ، التـي مـرت علـى الإنسـان عبـر حقـب زمنيـة متلاحقـة و أكثرهـا ترويعـا، انطـوت علـى فلسـفة مختلفـة مـن حيـث التفاسـير, بيـد أن الأمـر بالنسـبة لنـا سـببه الأول هـو الابتعـاد عـن قـيّم الإسـلام الحنيـف أو عـدم فهمـه ،أو تحـوير غايتـه عـن المسـلك الصّـحيح و تحريفـه, أو المتـاجرة بـه و زجّـه فـي مصـالح ظلامية ضيْقة.

- إن مصـطلح الإرهـاب ظـلّ ردحـا مـن الـزّمن ،يفسّـر بكونـه سـرقة الحيـاة مـن إنسـان بقتلـه أو بترويعـه أو بتهجيـره قسـرا وقهـرا , بيـد أن مثـل هكـذا توصّـيف لابـد للقصـور أن يكتنـف مضـامينه. ذلـك إن الإرهـاب لـيس بتلـك الماديـة المطلقـة. إن عـيش الإنسـان فـي ديـاجير الشّـر الغاسـق الوّاقـب، والعتمـة الـدّهماء فكـرا و اعتقـادا ،لعمرك هو الإرهاب في أقبح صوره و وسومه.

iLovePDF

- لا يكفي أن تعيش إنسانا يتمتع بكل صفات الجمال المادي، مالم تحمل أو تعتنق قيّم الانسانية الخالدة.

- لقد أمر الله صرير القلم الأعلى، بتدوين كلّ قادمٍ، وكل آتٍ، في اللّوح المحفوظ، وقدر الله نافذٌ لا مناص، وأمره بين الكّاف والنّون، بأن يقول للشيء كُن، فيكُون.

- نتكلم هنا عن شخوص وأديان واماكن افتراضية في قطاع كلي من الرواية.

iLovePDF

عبرة....

لقـــــد (قـــــرر) ابـــــن نـــــوح عليـــــه الســـــلام أن لا يتغيـــــر..

و(قـــــــــــررت) امـــــــــــرأة فرعـــــــــــون، أن تتغيـــــــــــر.....

الأول... نشـــــأ تحـــــت رعايـــــة ، أكبـــــر داعيّـــــة فـــــي التّـــــاريخ...

والثانيـــــة، نشـــــأت تحـــــت ســـــقف ،أكبـــــر طاغيـــــة عرفتـــــه البشـــــرية...

فمهمـــــــــــا كانـــــــــــت الظّـــــــــــروف مـــــــــــن حولـــــــــــك...

فأنـــــــــــت مـــــــــــن يقـــــــــــرر!!!

أنت صاحب القرار والاختيار.*

أن تكـون انسـانا صـاحب مبـادئ وقـيّم، متسـامح مـع الجميـع ، تحتـرم دينـك ونفسـك ومجتمعـك ، تحتـرم الاديـان واللغـات والمجتمعـات الاخـرى ، تعـيش لأن تسـعد أهلـك وجيرانـك ومجتمعـك الكبيـر، تلـوذ بجلـدك عـن التعصـب والطائفيـة والمناطقيـة والنّعـرات الدينيـة، تحتـرم غيـرك جسـدا وروحـا ، تصـبح فـاعلا إنسـانا ومكونـا هادفـا في بناء مجتمع متكامل.

***من أقوال الشيخ محمد الشّعراوي رحمه الله تعالى رحمة واسعة.**

iLovePDF

لا يتفاضل النّاس بأوسمة ولا بمناصب و لا بنياشين و لا بشهادات ، ينتفي هناك الزّمان ويبقى الإنسان، تنتفي الرُّتب والأوسمة والقيادات ،لن يقال لك بروفيسور و لا يقال لك دكتور ، بل لا ينادى عليك باسم قائد ولا سلطان ولا وزير ولا غفير ، يتفاضل الخلق في أجداثهم وبرزخهم بعملهم وخلقهم وما قدّمت أيديهم .

قال قائل في الدُّنيا:

_ يا ليتني أوتيت مثل فرعون إنه لذو حظ عظيم. ونسي أن أعمال صاحبه قذفت به في قاع الجحيم.

قال له آخر:

_ لو كنت عدما فلا حساب، لقلبي يمزُّق، ولا عقاب لجسدي يحرق.

بالمفيد المختصر...أنت وحدك في الحياة مَنْ يقرِّر، فماذا قرّرت الآن ؟ أن تعيش انسان بكامل انسانيته أو إنسان لا يحمل من الانسانية سوى الاسم؟.

iLovePDF

1. آخـــــــر الوّصـــــايا.

iLovePDF

بلـغ مـن عمـره عقـده الخـامس-أربعـون عامـا -، وقـد تـزّوج حـديثا بفتـاة رائعـة البّسـمات والقسـمات تـدعى نـدى، صـبر ونـال رزقـا ربمـا لـم يخطـر ببالـه قـطٌّ، بعـد أن قرر البّقاء أعزبا أبد الدّهر، أحايين جمّة من مراحل حياته.

مصـرِّيةُ الجنسـية والمولـد والهـوى، لـم تتجـاوز مـن عمرهـا الثالثـة والعشـرين عامـا، مـن مدينـة المنصـورة، مـوطن الجمـال والحسـن، حيـث الطّبيعـة العـذراء، الخلّابـة الفاتنـة، حيـث النّيـل وزرقتـه والهـواء النسـيم ورّقتـه، والمقـام المـريح منزلـه وشقته.

منصـورة العِـز، منصـورة كسّـرت ذات يـوم شـوكة الأعـداء والـدّاء، هامـات أهلهـا وأعنـاقهم فـوق السّـماء، هـم الأسـياد هـم النـبلاء، لقـد أحـبّ إسـلام أن تكـون زوجتـه مـن هذه الأرض الغالية الشّماء.

إسـلام رجـل جزائـري مُسـلم ، مـرّت عليـه كثيـر مـن المّحـن فـي حياتـه ، متـديّن متخلِّـق ، لا يحـب المخالطـة التـي لا معنـى ولا قيمـة لهـا ، ينـزِع دائمـا نحـو فعـل الخيـر، فهـو يـدير مشـاريع خيريـة بالجملـة وفـى منـاطق عـدّة ، ورثهـا مـن والدتـه التـي لم يمضي وقت كبير على وفاتها .

لقـد تعاهـد مـع نـدى علـى العـيْش إلـى آخـر رمـق مـن العُمـر ، أحبهـا بجنـون وبادلتـه نفـس المشـاعر بـل أكثـر ، وجـدت فيـه فـارس أحلامهـا الـذي رسـمته فـي خيالهـا ، ووجـد فيهـا الإنسـانة التـي تشـبه والدتـه الرّاحلـة ، وجـد فيهـا الجمـال والطِّيبـة والهمّـة ، وجـد فيهـا الإنسـانية والنبـل والرحمـة ، وقبـل كـل ذلـك الـدِّين والخلـق والحشـمة ،

iLovePDF

إنها صورة طبق الأصل لوالدته التي عشقها بجنون وتركت فراغا رهيبا في حياته ، قد لا يستطيع مخلوق مهما كان أن يملئه .

أثرت فيه وأحبها، كانت له الأم والأخت والصديقة والرّفيقة، كانت له الحنان الفيّاض المتدفق ، فجعلت منه الرّجل الناجح المتألق ، يذكرها في حله و ترحاله ، في حلمه وعلمه ، في نومه ويقظته ، في كل أحواله وحالاته .

أمر مثل هذا جعل ندى تتلهف شوقا لمعرفة من هذه الإنسانة العظيمة التي يذكرها دائما ابنها بخير ، ويعدد مناقبها و آثارها وخصالها ، إنها تُلُّح عليه دائما بأن يسرد عليها كامل تفاصيل حياة والدته بكل جزئياتها ، وهو يريد أن يفعل لكن كل مرة ينشغل بشيء ويؤجل الطّلب لوقت آخر .

لكنها استغلت فرصة يوم الجمعة ، لتصر عليه بقوّة ، ذهبا سوِّيا إلى مسجد الحي ، ثم عادا مجددا إلى البيت ، حينها قامت بتجهيز طاولة الغداء ، وعليها إبريق شاي وكأسين وصحفة حلويات ، دنت من أذن غاليها ، وقالت :

- اليوم ستحكي لي حبيبي.

نظر إلى حيث أبعد نقطة في عينيها ،بنظرة تمُور بالعشق والهيام والغرام والإخلاص ،حتى كاد ينسى ، أخجلها فاحمرت وجنتيها . ولم يعد لجادة صوابه حتى أغفت عينيها إغفاءة حب وقبول. فانتبه، وقال:

- عيونك بحرٌ أزرق لا شواطئ له. سفنٌ ماخِرة بين ضفتيه، لقد سميتك باسمي وصرت أبد الدهر لي ملكي..

صمت وقال مجددا بعد أن رأى خجلا يعلو محياها :

iLovePDF

- آه، لقد قمت بتحضير كل هذه المائدة لإدراكك بأن الحِكاية سيطول وقتها !

- بكل تأكيد ، لكن إذا لم يكن لديك وقت يمكننا تأجليها .

- لا، ما دمت عقدت العزم، سوف أحقق لك رغبتك بكل تأكيد، ولكن لن أسرد عليك الحكاية انطلاقا من كوني أنا ابنها حتى لا أكون ذاتيا، بل سأرويها لك بعين موضوعية، وكأن شخصا آخر عاصرها، هو من يحكي لك عنها .

- حاضر، اتفقنا ، هيا .

- قبل الحكاية ، أود إخبارك بأننا سنذهب لاحقا الى لبنان ذلك البلد الملهم حيث يتعايش النّاس في هدوء وسلام،رغم كل الأزمات التي عصفت ، سنزور البقاع وزحلة وصيدا وطرابلس وبيروت، سنزور اصدقائي أيمن وهاني وفادي وانطوان وبيار واصدقاء العائلة ميشيلا وريتا وهايدي ورانيا ، سأذهب بك الى حيث غابات الارز السامقة ، حيث تنفصل عن صخب المدن والازدحام الى عالم الطبيعة الغنّاء ، وزقزقة العصافير وحفيف الاشجار وخرير مياه الجداول الآسرة ، حتما ستندهشين من اوراق الاشجار التي تلون تلك الجداول بالأرجواني والاحمر والاخضر والكستنائي ، ستبهرين حتما بذاك البلد الباهر في جماله وعذريته ،...ولكن قبل ذلك دعيني أشرب قليلا من الشّاي، حتى أستطيع التركيز أثناء كلامي .

أخذت ندى إبريق الشاي وسكبت كأسا لزوجها و آخر لها ، ثم تناولت قطعة سُكر لوضعها في كأس زوجها لكنه ترجاها بإرجاعها ، استغربت ندى ، ولكن إسلام بدد ذلك ، ومسك بأصابع يدها ، قبّلهم في لحظة ولهٍ، وأدخلهم في كأسه ، حينها ارتشف رشفة ثم ضمّها إليه بحنان . وقال لها في تؤدة ورفق:

iLovePDF

- الآن أصبح الشّاي حلوا، لن نحتاج من اليّوم إلى سكر، ستصاب البّرازيل بحالة ركود وكساد !!.

iLovePDF

2. نـــذر أزمـــة ... و بوادر فرقة.

iLovePDF

فـــي شِـــتاء صـــقيعي ، وتحـــت درجـــة حـــرارة ترنّحـــت مقاييســـها إلـــى مـــا دون المُستويات العشـرينية تحـت الصِّـفر ، وحيـث الثُّلـوج تنـزل بشـكل كثيـف ، و البُـرودة تبسـط سُـلطانها علـى الجميـع ، فالشـوارع تكـاد تكـون خاويـةٌ علـى عروشـها مـن جـنس بّشـر عـدا بعـض المتسـكعين الـذين يضـفون أجـواء مـن العبـث و المُجـون و الفوضـى ، و أحـدهم الـذي يرفـع قيثارتـه ،و يعـزف مقطوعتـه التـي لا يتوقـف عـن تكرارهـا وكأنهـا لا تنتـه البتّـة ، وكـلاب ضـالة تنتقـل مـا بـين القُمامـات الفـاخرة التـي خلفها أثرياء المدينة و أسيادها .

إنهـا مدينـة إيسـتريفانا ، حيـث العـالم لايـزال مصـدوما مـن تبعـات وآثـار الحـرب الأولـى، بـل إنـه فـي فتـرة لملمـة الجـراح وكفكفـة الـدُّموع التـي أُثخـن بهـا، تبعـات دمّـرت جميـع أبنيتـه الاقتصـادية و الاجتماعيـة ،و الحضـارية خاصـة . مظـاهر الحيـاة تبـدو بائسـة مريـرة، وفيروسـات بيولوجيـةٌ تتجـوّل، وتفـرض حظـرا للتجـوّل، تمكُـث فـي كـل مكـان ، وتسـتعمر كـل مكـان ، فتـزرع الرّعـب بشـكل مضـاعف ، إن النّـاس يخرجـون مـن ديـارهم- تحـت تهديـدها ووعيـدها ، خوفـا مـن أن تخـتطفهم مـن الحيـاة الجديـدة البائسة- بحذر بالغ .

لـم تكـن الأجـواء عامـة تـوحي بالهُـدوء و الاسـتقرار فـي ذلـك الوقـت ، كـل النّـاس تتـوجس خيفـة ممـا قـد يحـدث فـي أيـة لحظـة ، و الأجـواء لاتـزال مشـحونة و السّـبب القسمة الضيزى ،لمغانم تلك الحرب التي ألحقت خسائر جمّة بالفريق المنهزم .

فـي إحـدى الشّـوارع الرئيسـة للمدينـة، كانـت تعـيش ماريـا رفقـة عائلتهـا فـي منـزل فـاخر قريـب مـن أهـم المرافـق الموجـودة فـي البّلـدة ، عنـد الوّلـوج إلـى باحـة المنـزل يشـدُّ انتبـاه الزائـر ذلـك الـزّخم الكبيـر و التنـاغم البّـاهر فـي الـدِّيكور الحسـن، حيـث المسـاحات الخضـراء و الأشـجار البّاسـقة بـألوان أوراقهـا الزاهيـة التـي لـم تسـقطها

iLovePDF

ريّاح الشّتاء العاتية ، وكأنها تريد إلقاء التّحية على كل عابر ، أو كأنها تريد إضفاء جو رومانسي على المكان وقد كفهر وجه الشّتاء ، لقد زادت الأضواء المنتشرة في كل مكان من البّاحة جوا شاعريا آخر ، لينسيك كل ذاك الإبداع في رفّة عين ما ينتظرك من لوحات فنية تأسر الألباب داخل جنبات المنزل الفخم.

ماريا سابين الفتاة الحسناء الغانية، شابّة في ربيع العمر، شقراء ذهبية الشّعر، ممتلئة الخدود بكل خد غمازة فاتنة ، عيناها بحرا أزرق لا شواطئ له ، رموش كثة طويلة ، و قوام يشعرك بأنك لأول مرة تبصر أنثى !!

ماريا هي كذلك الفتاة المتعلمة المثقفة إنها تغزل أشعارا و خواطرا و قصصا و روايات.

نيكيتا هو والد ماريا ، يريد دائما أن يظهر بأن العلاقة بينهما ليست علاقة أُبوّة ، يودُّ أن يكشف للعائلة وللقريب قبل البّعيد بأنها أقرب النّاس إليه. بل مستودع أسراره؟ فهو يثقُ بها ثقة عمياء ، ويحكي لها كل شاردة وواردة تحصل معه داخل البيت وخارجه؟ ، لا تمرُّ عليه أزمة أو مسألة من مسائل الحياة إلا و يطلب رأيها ، والأكثر من ذلك يعمل به و يمدح لها صنيعها ، لقد كانت سببا بذلك في انتشاله من الكثير من مطبّات الحياة و مصاعبها ؟

زفيتلانا، الأخت غير الشّقيقة لماريا، فتاة شقيّة عنيدة، تنبري لكل المواقف مهما كانت . هي ثمرة علاقة ما بين نيكيتا و امرأة من أصول بوسيمية ، لقد كانت هذه الفتاة حادّة الطِّباع مزاجية متوقدة ، تحب أن تقارن نفسها دائما بأختها غير الشقيقة ، تثير لوائح اللّوم على والدها بحجة أنه يفضل أختها عليها ، لقد كانت عطفا عن ذلك تهتم كثيرا باقتناء مواد التّجميل الفاخرة مهما كان نوعها

iLovePDF

ومهما غلا ثمنها ، ووالدها بالنهاية لا يمانع البتّة في إكرام وفادة مطالبها التي لا تتوقف وإن كثرت .

لم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، بل إن زفيتلانا كانت فتاة كثيرة الشّكوى ،مرة على وضعها النّفسي و أخرى على ما تسميه تطاول ماريا ووالدتها عليها ،وهي التي تعيش بعيدة عن حضن والدتها المطّلقة والتي تعيش بدورها رفقة أبنائها من زوجها الثاني توماس يواخيم الذي يعمل قائد طيران في الجيش البُوسيمي .

لم تكن حياة ماريا محصورة في المنزل حيث الكتابة و التأليف و الإبداع والقيام بشؤون المنزل الذي و برغم وجود الخدم والحشم في كل زاوية من زواياه ،إلا أنها أثرتْ على نفسها القيام بكثير من تلك الشُّؤون بنفسها ،وهي تعزي ذلك إلى أن عمل البيت يزيد من أنوثة الفتاة ويجعلها أكثر انطلاقة في الحياة ، ثم إنها تدرك تمام الإدراك بأن أولئك المعاونون أناسٌ يحتاجون لمن يساعدهم ولو بشكل رمزي، فهذا الأمر يجعلهم أكثر عطاء وتفانيا و إخلاصا .

لم تكن كل الأشغال التي تقوم بها ماريا عادية و طبيعية و معهودة داخل كل بيت ، فالرّقابة في العمل كانت بدافع من العبث الممنهج الذي كانت تعكف عليه زفيتلانا ، التي كانت تترصد كل عمل تقوم به ماريا لتجعله هباء منثورا ،وهي تدرك أن ماريا تقوم بإعادة ترتيب ما تم بعثرته ولو على مضض ، متيقنة كذلك أنه ليس من عادتها أن تشتكي إلى والدها أو والدتها ، فوالدتها مغلوبة على أمرها لإدراكها أن زفيتلانا فتاة مدلعة عند والدها ، أمر مثل هذا يجعل المرء يستشيط غضبا ، لكن على ما يبدو أن الأجواء و رغم كل السُّخونة التي تحيط بها، إلا أنها أصبحت طبيعية للغاية .

iLovePDF

إن نيكيتا في ظاهر الأمر يتصرف هكذا لأنه يريد أن يثبت لزفيتلانا أنها ليست وحيدة ، أو تعيش في عالم مهجور يكتنفه الظّلام وتطغى عليه الوِحدة ، إنه يريد أن يعوِّض حنان الأم المفقود، تلك الأم التي تعيش بعيدة عن ابنتها لمسافة أميال و أميال ، لكنه ربما يدري أو ربما لا يدري أن بصنيعه هذا قد يؤسس لعلاقة عدوانية بين البنتين، وهو الذي كان يفترض فيه أن ينصّب ميزان العدل والمساواة بينهما ، ربما أمر مثل هذا يجعل ماريا تعيش لحظات من العزلة داخل غرفتها أو تريد أن تشغل نفسها بالعمل داخل البيت أو خارجه و في تلك اللّحظات هناك صمت مطبق. يعزف على أوتارها لحن من الشُّجون السّرمدي، حيث الوّجع والحرمان والظمأ العاطفي ، رغم إقرارها القوِي بأن والدها يسعى جاهدا لإسعادها ،و تحقيق جميع مطالبها المادية لكن هناك حلقة مفقودة تدور دائما بخلدها ، وصلٌ بارد برودة شتاءهم الذي يعيشون ، معادلة تلك ، تريد فكّ شيفرتها .

لقد عاشت ماريا حياة طفولية موجعة ، لقد كانت تنام وتستيقظ على أصوات الشّجار و النِّزاع بين والديها ، أصوات كان يضجُّ بها المكان ، وتسمعها الأذان الصمّاء ، كانت ترى بأم عينيها كيف أن والدها الثّمل العاقر للخمْرة. كان يدخل متأخرا يتمايل في كل الاتجاهات ، ويرحل به جسده في كل الأوطان ، و يتمتم بأصوات غير مفهومة أحيانا ، و أحيان أخرى بكلمات نابيّة قبيحة ، تخجل حتى من سماعها بينها وبين نفسها ، لم تنس أبدا كيف كان والدها يضرِّب أمها ويقذفها برجله و كأنها كرة ثلج ، لكنّها برغم ذلك تتحمّل و تتّحمل ، وإنه ليعيد الكّرة كل مرة ، تتساءل ماريا بصوت خافت :

_كيف لوالدتها أن تحمّلت كل صنوف العذاب تلك ؟ إنها امرأة جسورة و صبورة . وهو أمر يندر وجوده على كل حال، وبدون عاطفة.

iLovePDF

إنــه يمــر بخيالهــا تلــك المــرّة التــي كــان يحمــل فيهــا ســلاحه، وبمجــرد مناوشــة صــغيرة معهــا، إذ بــه يطفــق ليصــوّب عيّــارا ناريــا فــي رجلهــا، ولــولا لطــف الأقــدار لكانت في عداد الهالكين.

ثم تطرح تساؤلا آخر :

_هـل كـان سـبب طـلاق زوجتـه الأولـى- والـدة زفيتلانـا -هـو تماديـه فـي معاملتهـا بشّـر و بسُـوء ، وعـدم تحملهـا البقـاء معـه بعـد أن نفـد صـبرها ؟ أم ثمـة أسـباب أخـرى مجهولة عجّلت بالفراق بينهما ؟

ماريـا تريـد أن تعلـم مـن الجـلاد ومـن الضّـحية ؟ لطالمـا أقـرت بكـون زفيتلانـا فتـاة مشاكســة ســيئة الخلــق وصــعبة المــراس ، بيــد أنهــا و بتــذكر تصــرفات والــدها فــي المّاضـي بخاصّـة ، وكيـف كـان شـريرا همجيـا سـمجا، فإنهـا تنقـل صـفة الجّـلاد إليـه ، وتلــبس أختهــا غيــر الشــقيقة ثــوب الضّــحية المســكينة ، إنهــا تلــبس الكــل صــفة ثــم تجرده منها .

ربمـا الشـيء الوّحيـد الأكيـد الـذي تدركـه جيـدا، هـو أنهـا و والـدتها ضـحيتا ظـروف صــعبة موجعــة لــم ترحمهمــا البتّــة ، ظــروف كــان والــدها ســببا مباشــرا فيهــا ، و أنــه هو دون سواه من يتحمل المسؤولية العظمى كونه أبٌ غير مبالي و لا مسؤول .

كيــف لإنســان لــم يــتعلم مــن مدرســة الحيــاة شــيئا مــن قــيّم المســؤولية و التربيــة و الرِّعايــة أن يــزجّ بنفســه فــي الوّلــوج إلــى مشــروع أساســه قيمــي معنــوي ، قبــل أن يكــون مــادي بيولــوجي ، لا أحــد ينكــر أن نيكيتــا كــان أحــد قامــات المدينــة و أســيادها نظـرا لثرائـه الفـاحش ، و نفـوذه وامتلاكـه لوقـود الحـروب آنـذاك و الوّضـع السّياسـي

iLovePDF

هش للغاية ، و بالتالي فالحاجة إليه طاغيّة لا مناص !؟ ولكن مقابل ذلك لم يقابل ذلك ثراء أخلاقي و معنوي بل عوّز دراماتيكي طافح .

إنها اليوم و رغم كل التغيير الذي طال والدها ،إلا أنها لاتزال تتوجس خيفة في نفسها من إمكانية عودته إلى حاله وإلى ظلاله القديم، إنها تحسُّ بوجود جينات تنحّت عن وضعها برهة زمن ،ثم ما تلبث أن تعود في أي لحظة ما للتّنمر !! إنها تلحظ تلك اللّحظات المفزعة عندما ينهر و يوبخ وبشدة خادما داخل المنزل ، أحيانا بسبب وأحيان أخرى بدون سبب وجيه ، صحيح لم يعد نيكيتا ذلك الرجل المتنمر الفرعون الطاغيّة ، ولكن صار من الواجب عدم الاقتراب منه بمسافة قريبة حتى يسلم المرء منه...ربما هكذا تفكر ماريا التي أدمنت التفكير كثيرا في هذا الجانب من حياة الأسرة، وتوغل كثيرا في ذلك .

ضاقت ماريا ذرعا بالوضع داخل البيت حيث أن أختا معتوهة وأبا أذاقهم صنوفا من العذاب ذات يوم وربما لايزال ، وأمّا تعاني في صمت مثخنة بجراح غائرة وانتكاسات رمتها وراء ابتسامات توزعها على الكل ولو بتكلف .

إن ماريا تدرك بهذا التوصيف و التفكير أنها تعيش حالة من التناقض عند الكلام عن حال البيت عامة ، وعن علاقتها بوالدها بشكل خاص ، ربما حالة من الانفصام بين ماضيها وحاضرها ، بين ماضٍ تفرعن وطغى فيه والدها وبين حاضر تغيرت فيه ملامحها بتغير معاملة والدها نحو الأحسن ، نعم إنها تدرك أن والدها يصغي لها ويسمع لنصائحها و رأيها السّديد، إنها صديقة له قبل أن تكون ابنة له ، لكنها تعلم علم اليقين أن هذا الأمر ناتج دون ريب من لباقتها الزائدة وحسن معاملتها الزائدة له من جهة ، ومن جهة أخرى لحاجته الماسة لإنسان قريب يستمع له و يصنع له تدبّيرا يعجز لوحده أن يصنعه ، أو ربما لدافع آخر لا

iLovePDF

يبد جليا ، وليس الأمر ناتج من إنسان تصرفات ماضيه وحاضره سيّان ، وهذا هو أصل المشكل وسبب الصداع و التفكير و الخوف من أي تحوير قد يطال أي حركة وسكنة فيه في أي لحظة حتى دونما سبب !! .

لكنها ما تلبث حتى تصيغ نفسها لها سؤالا :

_هل والدك يحكي لك كل شيء ، أم أنه يخبئ لنفسه أسرارا يتفرّد بها لها دون سواها ، نفسه تلك التي لها من الماضي الشرير مالها ، أو ربما هو في مسائل معينة ينزع إلى التّكلم مع زفيتلانا دون غيرها ؟

إن المرء بواقعه وليس بماضيه ، فمن لا يعش واقعه لا واقع له بحال من الأحوال ، يقينا لا تريد ماريا العيش بين جنبات المّاضي و فى رفوف الزّمان الغابر الموجع ، ولو لرفة عين ، إنها فتاة منطلقة تريد إنجازات في الحياة رغم أدران الماضي الوجيع ، ولذلك فإنها سرعان ما تلجأ للانصراف نحو أي شغل داخل البيت أو خارجه مهما كانت أهميته من عدمها، أو وقت إنجازه هروبا من الإطالة في التفكير و الانغماس في شيء قد اندثر و لا قوة ولا قِبل لها بتغييره .

ولأن ماريا بالوماريا العقيدة فلم تكن تتوانى لأن تترك قدّاس يوم الأحد في البيرهافيا المجاورة لمنزل والدها ، حيث تلتقي هناك ببعض الأصدقاء الذين دأبوا على الحضور المنتظم للمكان ، لكل حاجته يريد أن يقضيها ، فالمآرب متعدد ة و لا أحد فيهم ربما جاء لسلامة المعتقد و العقيدة ، بيد أن ماريا بعد فترة ، لم تعد ترتاد الكنيسة أي بعد فترة قضتها فيها لدرجة أرادت معها أن تصبح راهبة ، لكنها عدلت عن الفكرة وعن ارتياد مكان العبادة ككل بعد أن ضاقت ذرعا بسماعها و رؤيتها كل مرّة ،ولما يحدث فيها من تحرّشات واعتداءات جنسية فظيعة أبطالها

iLovePDF

رجـال ونسـاء ديـن بالومـاريون حـوروا نشـاطهم مـن دينـي إلـى جنسـي ، أمـور مثـل هـذه جعلـت ماريـا تغيّـر رأيهـا لترتـاد كنيسـة أخـرى بعيـدة عـن مقـر سـكنها ، بيـد أن الأمـر لـم يتغيّـر بـالمرّة ، و التصـرفات المشـينة متشـابهة فيمـا يبـدو ، لقـد فقـدت الثِّقـة فـي شـيء اسـمه البيرهافيـا ، فقـدت القـدرة أن تمـدّ حبـل الوصـال بهـا مـرّة أخـرى ،مهما كان الأمر وكلّف .

لقـد تبخـر حلمهـا فـي أن تشـكي همومـا داخلهـا. أن تبـثّ حزنهـا ووصـبها إلـى رجـل ديـن يُسـكت حيرتهـا و يمسـح دمعتهـا و يشـرح لهـا كـل الـذي هـي فيـه ، إنهـا تـوقن الآن أكثـر أن مـا أسـموه دينـا بالوماريـاَ لا ولـم يصـلح لهـا حـالا بـل زاد فيهـا شـيء مـن عتمـة الحيـاة وغسـقها ، إنهـا تبحـث عـن الحقيقـة و عـن الـذّات وعـن فجـر طال انتظاره ، و يوم موعود يمنحها الحرّية المطلقة و الخلاص الدائم المنشود .

اعتزلـت ماريـا المشـهد البيرهـافي وأطلقـت العنـان لمكوثهـا فـي حجرتهـا ، لقـد أثـارت انتبـاه والـدتها ذات ليلـة وهـي فـي غرفتهـا وحيـدة تبكـي و تنـوح بحرقـة ، تقرّبت منها وسألتها عن الدّافع الذي جعلها على الحال الذي هي عليه :

_ما بك ماريا، ما الخطب، الذي يوجعك و يجعلك تبكين هكذا مثل فتاة صغيرة؟

_لا شيء أمي، مجرّد صداع بسيط.

لكـن والـدتها لـم تقتنـع بـالجواب الـذي دفعـت بـه الفتـاة، فمسـحت علـى رأسـها وقبّلتها ثم ضمتها وأردفت تقول :

_منـذ مـدّة وأنـا ألاحـظ حزنـا فـي عينيـك صـغيرتي ، وبالتأكيـد هـذه ليسـت المـرّة الأولـى ، التـي أراك فيهـا بهـذا الشّـكل ؟ كنـت كـل مـرّة أتحاشـى فيهـا الكـلام معـك كـي لا

iLovePDF

أسبب لك إزعاجا. لكن طفح الكيل ، وصرت لا أتحمّل ما أرى ،وحريٌّ بك الآن أن تفرغي لي كل ما في جعبتك من مشاعر مهما كانت ، أنا أمك .

_ لا أفهم ما الذي يحدث من حولي ، أنت تعلمين بأنني منذ مدّة ليست بالوّجيزة وأنا أتعاهد الذّهاب إلى الكنيسة بحثا عن الرّاحة و الهدوء و السّكينة ، بعد كل المآسي و الأوجاع التي عشتها في صباي ، وبعد كل الحجم المهول من التناقضات التي رأيتها في والدي ،في تصرفاته وأقواله ، أحسست بالضّياع ، أحسست وكأنني موجودة في مفترق الطُّرق وبمنأى عن أي طريق صحيح مريح ، اقتربت بشدة من بيت العبادة لما تمثله في حياتنا من مثالية ، ولما تمثله لنا من خلاص ولما في رجال الدّين القائمين عليها من نقاء و صفاء ، واضبت على التّوجه إليها بصورة نمطية ، ثم إنني اتصلت وتحادثت مع أحد القياديين القدماء فيها وهو معروف لدى ساكنة المدينة وانت تسمعين عنه تأكيدا...

ردّت الوالدة قائلة :

_لست أعرف على نحو مؤكد، ولكن ربما أعرفه، هيا أكملي القصّة .

ردت ماريا، قائلة :

_إنه القائد الرّوحي جوزيف ، تكلّمت معه في كل شؤون حياتي و كل مشاكلي وكل ما مرّ عليّ منذ صغري إلى لحظتي هذه، لقد أحسست بنوع من الرّاحة –أو هكذا بدا لي - عندما بُحت له بكل أسراري، وعندما عرض علي بعضا من الحلول ...

قاطعتها والدتها :

_ما نوع الحلول التي اقترحها عليك ؟

iLovePDF

ربما هناك حلول جذرية و أخرى سطحية، حلول أستطيع القيام بها، و أخرى قد يستحيل علي القيام بها ، لكن ليست المشكلة هنا ؟ استغربت والدتها وهمست بالقول :

_لم أفهم قصدك بنيتي، أين مكمّن الإشكال إذن؟

تنّهدت ماريا قائلة ، بعد لحظات من التفكير وعلامات الاستغراب التي علت محياها :

_ماذا أريد أن أقول لك أمي ، إن الإنسان الذي وثقت به و سردت عليه كل قصة حياتي بأفراحها و أتراحها ، راودني عن نفسي وأراد استغلالي ؟!

اندهشت والدتها من هذا القول ، ثم ردّت بغضب :

_ماذا تقولين ؟ أنت متيّقنة من كلامك ؟

_نعم أمي ، بكل يقين ،كان يريد منحي صكّ الغفران من كل ذنوبي ،أن يحل لي جميع مشاكلي بشرط أن أمارس معه علاقات محظورة ، أنا الآن في حيرة من أمري ، هل أبلغ عن الحادثة أم أكتم ذلك في قلبي درء لأي مشكل قد ينجر من مثل هكذا تبليغات ، ثم إنني لا أريد أن يصل الخبر إلى مسامع والدي ، أنا أعلم أنه سيستشيط غضبا وربما سيفعل أشياء مجنونة ، أنت تعرفينه أكثر مني .

هدأت والدتها من روعها ،قائلة :

_ لم أقصد أبدا رفع شكوى لوالدك ، لأني أعلم مسبقا كيف ستكون ردة فعله ، ولكن أردت أن نفكر سويا و بصوت مرتفع ، لا أريدك طبعا أن تتصرفي تصرفا أحادي الجانب ، دعينا نتفق على أمر معين يحفظ لك كرامتك وقيمتك ، ما رأيك أن

iLovePDF

أذهب شخصيا إلى عميد الشرطة فأخبره بالقضية ، أنا أعرفه عز ّالمعرفة ، إنه رجل كتُوم ، وله من الخبرة و التمرّس ما من شأنه أن يحل لنا الإشكال بسلاسة .

صمتت قليلا، ثم أردفت:

_ أقترح عليك اقتراحا ثانيا، التزمي الصّمت، و لا تتكلمي لجنس بشر كائن من كان بالحادثة ، ثم لا تذهبي بعد ذلك إلى مثل هذه الأماكن مجددا ، لقد أصبحت مشبوهة وتثير التّعب و الاشمئزاز.. أكثر مما تمنح الرّاحة و الاعتزاز.

بعد صمت و تفكير، أجابت ماريا والدتها بالقول :

_ يختلج صدري كثير من المشاعر تجاه الوضع الذي نعيش ، و يؤرقني كل مشكل نقع فيه ، أنا فتاة أحب الصّمت ولا أحبذ الاندفاع نحو المجهول . أعلم بأنه لا يوجد إنسان فوق الأرض لا يعاني من صخب المشاكل و صعوبة الحياة ، إن الثقة التي كنا نتغنى بها ونتعلمها أيام صبانا ، لم أجد لها معنىً و لا رسمًا ، لقد أيقنت الآن بأن الضّياع و المواجع تلاحقنا حتى ممن كنا نتعقد أنهم يمثلون الجانب الدّيني و الأخلاقي والقيمي في مجتمعنا .

تنّحت ماريا قليلا وتنهّدت تنهد المتضجّر، ثم قالت:

_ صرت أكفر بأولئك الحمقى و المعتوهين الذين يتوّجهون كل أحد وأربعاء إلى بيت العبادة طلبا للصّلاة و صكوك الغفران التي يبدو أنها لا توزع إلا بمقابل وليست متاحة لجميع الناس ، ماذا ننتظر من عامة الناس إذا كان من يمثل الرّب ؟! يفعل كل تلك الأفعال، و يستغل المنصب وضعف المرتادين والقادمين من أجل قضاء حاجات قذرة و موبقات سافلة ، هل تحسين أنت كذلك بما أحسن ؟

تنهّدت والدتها بقوة وتنكّست ، ثم قالت :

iLovePDF

_صدقيني بنيتي ، ربما يتراءى لك أو يتهيأ لك من الوّهلة الأولى أن مثل هكذا تصرف يعتبر معزولا و محدودا و ظرفيا ، لكن ستصدمين حتما بأن ما رأيته بأم عينيك مرّ على كثيرات ، ألم تلحظي أو تسمعي عن قائدات دينيات سخّرن أنفسهن لخدمة بيت العبادة و خدمة الرّب ، و اعتزلن بموجب ذاك الأمر المقدّس كل ملذّات الحياة وزينتها واقررن بذلك ثم ما تلبثي أن تعودي بعد مدة وجيزة وستجدي الكثيرات منهن قد حنثن وأخلفن وعدهن ، ستصادفين الحامل بطريقة غير شرعية ، ومن مارست علاقات مشبوهة حتى داخل بيت العبادة من بعض رجال الدّين الذين خانوا العهود و المواثيق، من بعض رجال الدّين الذين وقعوا في مستنقعات الفسّاد و أوكار الجريمة و مراتع المجون و الفجور . والمؤكد أن الاديان بريئة من ذلك ، بل تلك الأفعال تعلق لا ريب في شمّاعة بعض رجال الدين وليس كلهم على أي حال .

اه ، إننا نعيش في مجتمع يحمل من التّناقضات ما يحمل ، لا وجود لأشياء مثالية البتة سواء في تصرفات النّاس أو حتى في النّصوص الموجودة بالكتاب المقدس يقولون إنه توراس واحد ولكن حاولي الاسترسال و التمعن في دراسته ستجدين أمورا لا يصدقها بشر عاقل ، إننا بالمفيد المختصر نعيش حالة تيه و فوضى و اغتراب ، لقد عشت ما يشبه حالتك تقريبا عندما كنت في مثل سنك ، بل أنها تكررت معي أكثر من مرة، لدرجة لم أعد معها أحس بثقة ولا أؤمن بمثل هذه البيرهافيا و لا بمن يمثلونها ، لا أرى أين الخلل ، هل في النّصوص التي بين دفتي الكتاب المقدس أم في أولئك الموسومين خطأً برجال الدين الذين أساءوا فهم أو تطبيق روح تلك المعاني السّامية التي في فحوى الكتاب ، أم فينا نحن عندما اعتنقنا هذا الدّين الذي يحمل بين ثناياه متناقضات جمّة ، أم أن الدّين وتعاليمه لم

iLovePDF

تصل إلينا بشكل صحيح حيث طال التحريف و التزييف آيات وكلمات الكتاب بما يخدم مصالح السّاسة و رجال الدّين الذين يكتبون و يصيغون ما يريدون من عبارات غير ابهين بعامة النّاس، أنا فعلا في حيرة من أمري منذ مدة ولكنني أؤمن بهذا الدين و لا أريد التخلي عنه بحال من الأحوال ، ثم أردفت بالقول :

_ ربما هذه هي القطرة التي أفاضت الكأس ، فقضيتك فقط ذكرتني بأشياء و أمور عِدّة فى حياتنا نعيشها ،وهي تسكن فينا و لا تكاد تغادرنا ولو لحظة واحدة.

تنهدت ماريا بشدة و ارتمت في حضن والدتها والدّمع ينهمر من عينيها، وهي تقول:

_أحس بكل كلمة تقولينها بل إنني أعيشها مثلما تعيشنها ، لا أعلم ما الذي تخبئه الأقدار لنا ولكنني أريد أن أعيش على دين آبائي ولو كان خاطئا ، ولو تركنا هذا الدّين أين سنذهب ، لن أبلغ على القائد الروحي ، وسأواصل الخوض في معترك الحياة حتى تتراءى لي الحقائق رأي العين ، ويكفيني أنك دائما بجانبي سندا و عضدا لي في الشدائد و المّحن ، ليست حلقة القائد الرّوحي سوى واحدة من حلقات عديدة في دورة الحياة ، فزفيتلانا شر آخر مستطير، وإني لازلت أتوجس منها خيفة، إني أتذكر ماضيها برعب وريبة .... ونذر حرب قادمة تحوم وتلوح في الأفاق ، والأوضاع لا يبدُ أنها استقرت بيننا وبين الأعداء ، إننا في ما يبدو مقبلون على تحديات جديدة في الحياة .

لم تكن تدري ماريا ووالدتها وهما يتقاسمان في سمر وضجر ،أن هناك شخص ما وراء البّاب يسترق السّمع ، لم يكن ذلك الشخص سوى زفيتلانا ، التي سمعت

iLovePDF

كل فصول الحوار الذي دار بين ماريا وأمها ،انصرفت بعد أن أحست بنهاية ذلك الحوار إلى وجهة أخرى في البيت وهي تتمتم وكأنها تريد قول أو فعل شيء ما.

في صباح اليوم الموالي، الذي صادف يوم أربعاء. وفيه يلتقي النّاس داخل البيرهافيا لأداء قُدّاس وصلاة الأسبوع الثانية، اتجهت زفيتلانا إلى مقرها ، حيث أدّت قداسها وقامت بأداء الترانيم المعتادة و الطقوس إلى نهايتها، ثم اتجهت رأسا نحو القائد الرّوحي جوزيف وبعد إلقاء التّحية عليه، نبست بكلام خفيف قائلة :

_اسمع أيها الأبله ، لقد نبهتك كم من مرة بأن تظل بعيدا عن أسرتي مهما كانت الظروف، وأن لا تحاول أبدا الاقتراب من أي منهم تحت أي طائل، ولكنك على ما يبدو لا تطبق الكلام الذي أقوله لك ، أو بالأحرى أنت لا تسمع إلى كلامي من البّداية ، إنك تلعب بالنّار التي قد تحرقك في أية لحظة ، أنت لا تعلم بأنك بتصرفاتك الرّعناء تلك قد تدمر كل شيء جميل في حياتنا....

قاطعها جوزيف قائلا :

_على رسلك، أنا لا أفهم قطُّ، ماذا تقصدين بكلامك هذا ؟! ماذا فعلت ؟ أريد توضيحا منك...

لم تتركه زفيتلانا يكمل كلامه :

_على كل حال، لا أريد الكّلام أكثر هنا حتى لا ينكشف أمرنا، أنا بانتظارك غدا مساءً عند السّاعة السّابعة في الدّير القديم للمدينة، هناك ستفهم كل شيء سيدي القائد المحترم !!.

انصرفت زفيتلانا على مضض ، وهي تحاول أن توزع بعضاً من الابتسامات المصطنعة عند خروجها، حتى لا تظهر بمظهر المعتوهة أو التي تتأبط شرا.

iLovePDF

لـم تتوجـه زفيتلانـا إلـى البيـت مباشـرة بـل انحرفـت نحـو الجهـة الشـرقية للمدينـة حيث يسكن الحلاق أندريه .

طرقت الباب عدة طرقات لتسمع صوته وهو ينادي:

_من الطّارق ؟

ردّت :

_أفتح الباب أنا مونيكا ..؟؟

فتح الباب مسرعا وهو يسألها :

_لم أكن أدري بأنك ستشرفينني بزيارة في مثل هذا الوقت؟

دفعت زفيتلانا الباب ثم أوصدته بقوّة :

_كفـى أيهـا الأحمـق الحقيـر مـن الكـلام و اللغـو الزّائـد، أنـا لـم ولـن آتـي إلـى كوخـك القـذر مـن فـراغ ، أتعتقـد أننـي أحبـك أو مغرمـة بـك أو بشـخص مثلـك أيهـا الحـلّاق النذل .

اندهش اندريه من كلامها :

_لقـد أكرمتنـي بطبـق لذيـذ مـن الكلمـات النابيـة ؟ و لكننـي ربمـا أسـتمتع بهـا ،لأنهـا مـن صـنيع لسـانك سـيدتي ، فأنـا منـك فحسـب أسـمع مثـل هـذا الكـلام ، أعـذريني لقـد اعتـدت فـي محلـي بالنـاس يطـأطئون لـي رؤوسـهم لأفعـل بهـا مـا أريـد !! ولكـن فـى حضرتك يسقط كل هذا الكلام ، فانصرف إلى أن أطأطئ أنا لك رأسي !! .

iLovePDF

_كفاك يا غبي من كثرة المزايدات والكلام الفارغ، عندما أحتاجك أجدك، تناولت من جيبها مبلغا من المال وقذفته في وجهه، وهي تقول:

_لن يكون سخائي وكرمي لك بدون مقابل، أكررها لك عندما أحتاجك أجدك، وإن فكرت بالغدر ستدفع الثمن باهظا.

تقّبّض آندريه بسرعة على المبلغ ، وهو يردد أنا في خدمتك و رهن إشارتك سيدتي وتذكري بأنني أحبك ..

قاطعته زفيتلانا وهي تقهقه في استهزاء :

_ أنا أحبُّك أيها السّافل؟ أحب فيك خدمتك لي وسهرك على راحتي وتلبيتك لجميع مطالبي، أما الحب فتركته لك ولأختي المعتوهة ، هل تظن بأنني لا أعلم مدى حبك لها ، وبأنّك ربما تفعل أي شيء لأجلها ، لذلك أنا أكرر تحذيري لك من مغبّة الاستسلام لها ، و تذكّر بأنه لا شيء في حياتك اسمه ماريا ، وأن كل شيء بثمن !! أنا أعلم جيدا ما لهدف من وراء حبك لها؟ ولست مضطرة لأن أذكرك بأنني أنا من يعود الفضل لي في انتشالك من الضّياع و التّسكع في أرجاء المدينة، وبأنه لولاي أنا لما استطعت فتح محل الحلاقة بمالك الخاص، أذكرك بأنني أنا من صنعت منك رجلا أيها الأرعن !! ، إن تصرفت أي تصرف من تصرفاتك المتهورة في سبيل الحصول على مزيد من المال، أو في سبيل أن تخطب ودّ تلك الحقيرة، سأكون مضطرة إلى إرجاعك لنقطة الصّفر، وأنت تعِي جيدا كل الذي أقول.

غادرت زفيتلانا المكان رأسا متجهة صوب المنزل ، ولجت البيت تحت ناظر والدها نيكيتا ،ثم توجهت مباشرة إلى غرفتها دون أن تنبس لأحد بكلمة .

iLovePDF

إن والـدها يعلـم يقينـا أنهـا تفعـل كـل مـا تريـد وتقـول مـا تشـاء ، إنهـا متسّـلطة ولا تحبِّـذ أن يتـدخل أحـد فـي أمورهـا الشّخصـية مهمـا كانـت صـفته أو درجـة قرابتـه ولـذلك فهـو فـي أغلـب الأحيـان يلتـزم الصّـمت المطبـق ، ولا يبـدِ تعليقـا أو ملاحظـة حيّـال الـذي يـراه ، وهـو أمـر صـار معهـودا للجميـع ، حتـى إن ماريـا تبـدي كثيـرا مـن الاسـتغراب و الانـدهاش- مُـذ أمـدٍ ولـو بشـكل مسـتّتر، أو بإبدائـه أمـام والـدتها فحسـب- إزاء كـل تصـرفات أختهـا غيـر الشـقيقة وأكثـر مـن ذلـك تجـاه ردود فعـل والـدها الـذي لا يعاملهمـا بكـل تأكيـدٍ سـيّان، سـيما فـي كـل مـا تعلـق بالـدّخول و الخُـروج مـن البيـت، وكـذا فـي مختلـف الأفعـال والتصـرفات خـارج المنـزل ، حيـث أنـه يمطـر ماريـا بوابـل مـن الأسـئلة عنـد دخولهـا و خروجهـا ولـو بشـكل متلطـف حتـى لا يثيـر حفيظتهـا و غضـبها ، ثـم يتـدارك الأمـر ويـتحجّج بقولـه إنـه يخـاف عليهـا و يرتعـب مـن أي مكـروه قـد يلحـق بهـا ، ثـم إنـه يحـب الجلـوس إليهـا ، واستشـارتها فـي كثيـر مـن الشّـارد و الـوّارد مـن مشـاغله و مشـاكله ،وهـو أمـرٌ تقـرّه ماريـا ذاتهـا حـين الكـلام عـن والـدها الـذي لا يبخـل عليهـا فـي الإغـداق بالهـدايا كلمـا رآهـا فـي حالـة غضـب أو انطـواء خاصـة مـن تصـرفات أختهـا غيـر الشـقيقة ،والتـي تحـاول فـي غيـر ذي مـرة إذكـاء نـار الغضـب فيهـا ،رغـم إدراكهـا بأنهـا لا تنفعـل بسـهولة وأنهـا تـداري الكثيـر مـن مكـامن التوتر والغضب فيها.

لقـد ظلـت ماريـا لـردح غيـر يسـير مـن الـزّمن تريـد سـبر أغـوار ذلـك الاهتمـام الزائـد ،وربمـا الخـوف الطّـاغي مـن والـدها تجـاه زفيتلانـا ، ويـزداد فيهـا الارتيـاب مسـاورةَ عنـدما يطلـب منهـا البَقـاء معـه فـي غرفتـه لمـدة طويلـة وهـو أمـر يحـدث كثيـرا خاصـة فـي حـال مرضـه وهـو يـتحجج دائمـا بكونهـا ممرضـة فـي الأصـل ،وتسـهر بكـل تأكيـد علـى خدمتـه و مؤانسـته وهـو أمـر شـاذٌّ فـي نظـر ماريـا علـى اعتبـار أن زفيتلانـا فتـاة لا

iLovePDF

تحبذ المكُوث كثيرا مع أي من أفراد الأسرة ولا تنزِع بطبعها لفعل الخير مع أي كان ولو كان والدها !.

في أمسية اليّوم الموعود ، توجهت زفيتلانا نحو الدِّير القديم للمدينة بحسب الوعد المرسوم الذي قطعته مع القائد جوزيف ، انتظرت طويلا لكنه لم يأتِ ، وبينما هي تهمُّ بالانصراف إذ بها تسمع أصواتا مريبةً غير مفهومة بالقرب من الدِّير، ما جعلها تلوذ بالفرار على عجل ، و بكل قوتها نحو الطّريق العام .

وصلت لاحقا إلى البيت بعد عناء كبير ،وهي لا تصدق كل الذي حدث معها ، ولما استرجعت قِواها التي خارت منها ، تذكرت إخلاف جوزيف لوعده لها واستهزائه بها، ناويةً تأديبه بطريقتها الخّاصة عقب خروجه عن بيت الطّاعة .

انتشر في الغد خبر مفاده احتراق جزء من أفرشة البيرهافيا، وأن بعض المرتادين والعمّال اصابتهم ألسنة اللهب وهم يهمُّون بإخماد النيران ، فتناهى إلى مسامع زفيتلانا أن جوزيف كان داخل الكنيسة ساعة وقوع الحادثة ، والتي فتح بشأنها تحقيقا لمعرفة أسبابه وملابساته فتم استدعاء كل من كان بداخلها ، بيد أن نتائج التّحريات لم تفضي إلى نتيجة تذكر ، وتمّ بالتالي طيّ الملف .

انتظرت زفيتلانا إلى غاية الأربعاء القادم لتضرب موعدا جديدا مع صديقها القائد الرّوحي، حيث ارتدت ملابس بيت العبادة الخاصة ، ولجت وأتمت طقوسها ثم التقت به ، لكنها لم تلبث معه سوى ثوانٍ معدودات ، بعدها جدّدت معه الموعد نفسه في المكان ذاته، رغم إقرارها بخطورة القرار ،بعد كل الذي حدث معها أسبوعها الفارط .

iLovePDF

آن الموعد الجديد وتوجهت زفيتلانا حسب الموعد المضروب ، رأساَ إلى الدِّير فوجدته في انتظارها، لم تطل التّحية، وبادرته بالكلام قائلة :

_أشك في كونك بريئا من حادثة الحريق ؟

_ماذا تقولين ؟ تقصدين أنك تتهمني بالضُّلوع وراء ذلك؟

_نعم ، ولما العجب ، لست مضطرة لتذكيرك بماضيك الأسود ، لاتدعِ الطّهارة والبّراءة ، إن هذه الأمور لا تنطلي على أمثالي .

تمعّنت فيه بشدة، و أردفت تقول :

_يبدو أنك تتصرف دائما بتهور ، ولست على قدر المسؤولية التي أُوكلت لك، أريد أن أسألك : لماذا لا تنفذ أوامري ، أنا لا أوجه لك تعليمات أو نصائح ، أنا كلامي لك كله للتنفيذ ، وأنت تتعبني لأنك لا تريد أن تفهم ذلك ، هل تنكر بأنك تريد إقامة علاقة عابرة مع أختي ماريا ؟

شحب وجه القائد جوزيف ،وردّ بالقول :

_من قال لك ذلك، ما هذا، إنه هراء، لا يعقل لمثلي أن يفعل فعلا مشيناَ مثل هذا ، ربما أفعل ذلك وأُقدم على مصاحبة أي فتاة ، لكن أن أفعل ذلك مع ماريا ، لا ولو لمجرد التفكير في هذا الفعل ، ولكن من قال لك هذا الكلام ؟

_أنا هنا لِأعرف الدّوافع التي جعلتك تنزع نحو هذا التصرف البّائس ، ولست لِأعلمك بهوية الذي أخبرني ، لم يخطر ببالي مرة أنك تستغل منصبك وتستغل ظروف النّاس القاسية من أجل ممارسة الاعيبك الشيطانية ، ومع من ؟ مع ماريا ، تعلم أنني أكرهها ولكن حزّ في نفسي أنك بفعلتك هذه تسقط كل كلامي لك في

iLovePDF

التُّراب ، ألم تكفك كل تلك البنات والعشيقات، حيث حوّلت مكانا مقدسا لممارسة شهواتك العابثة ، أنبهك إن استمريت في غيّك ومحاولة استدراج ماريا والدُّخول إلى محيط أسرتي ، بأنني سأخرب بيتك وسأتخلص من الجنين الذي في أحشائي...

قاطعها القائد جوزيف بقوة :

_إياكِ أن تفعلي، أن تخربي كل الذي بنيناه سويّا بغبائك، لابد أن نحتفظ بالجنين، إنك تقاسمينني ذات المصلحة ، نحن بالنّهاية شركاء في كل شيء .

استشاطت زفيتلانا غضبا ، وردت عليه بعنف :

_اسمع يا جوزيف لو انكشف أمرنا سنهدِّر كل شيء بنيناه كل هذه المُدة، وسأحمِّلك كافة التبعات المنجرة ، لقد زاد تهورك وامتدت أساطيل لهفتك وأطماعك إلى حدِّ الجنون ، وهذا قد ينسف بالعملية برمّتها، لن أكون في حياتي بحال أما صالحة ، وأنت لن تكون أبا صالحا ، من يعرض فلذات كبده للبيع والإتجار بالجملة أو بالتفصيل أو بالتقسيط ملعون في كل الشرائع وأنت تمثل الكنيسة وسقوطك لن يكون سهلا إن تماديت في حماقاتك .

ضف إلى رصيدك – وانت تعلم – أن جماعتك التي اخترتها وتتعامل معنا لن تستطيع منحها صكوك غفران الرّب ، وإن انكشف حالها داخل البلد أو عند الحدود سيكون أمرا فظيعا وحتما لن يسكت أحدا منهم وسيستهدفونك مباشرة ، أتظن أنهم لن يبلغوا عنك ، إن كنت تظن ذلك فإنك حتما موهوم ، ولكن إن أنكشف امرك فإني أحذرك للمرة الألف من مغبّة الوِشاية بي لدى مصالح الأمن ، وإن حصل شيء من ذلك فإنني سأكون مضطرة للعب كل أوراقي ، وأنت تعلم ما لذي أقصده .

iLovePDF

تسمّر الأب في مكانه من شدة خوفه، لكن سرعان ما استرجع أنفاسه :

_ماذا تقصدين بقولك هذا ؟

_لا تتظاهر بالعته والسّفه ، أنت تعلم يقينا بأن كل حركاتك وسكناتك مراقبة ، ما رأيك إن قلت لك بأنك على علاقة إجرام رفيعة المستوى بوالدي ، إنكما تتاجران بحياة الناس وتشعلان نيران الفتنة والدّمار ، أنت شريك راق لأبي في تجارة السِّلاح الفاسد بيعا وشراء مع سبق الإصرار والترصد ، أنتما تديران عصابة عابرة للحدود هدفها التسويق للسلاح بشرائه وبإعادة بيعه بأثمان باهضه مستغلين الأوضاع الأمنية المتدهورة ، غير ابهين بحياة الإنسان ولا بالمدنيين المسالمين ولا بالصغار ولا بالكبار ولا بالحيوانات.

تقهقه زفيتلانا بقوة وتستمر بالكلام ساخرة :

_المدهش في الأمر، أنك فخامة القائد المحترم عضو فاعل بجمعية " آناستازيا " للرفق بالحيوانات وترافع كل أسبوع للحفاظ عليها وتجريم الاعتداء عليها تحت أي طائل ، بل إنك تتلقى باسم الجمعية مساعدات حكومية ومن كل أطياف الشّعب، لكنك أنت ومن معك تحولون تلك الهبات إلى حساباتكم الخاصة بكل حقارة ونذالة ، ولي أدلة تدينك و بقوة .

ترنح جوزيف قليلا ثم انفجر ضحكا، وهو يتمايل في كل الاتجاهات ، لكن رد عليها بعد أن تمالك نفسه بالقول :

_عزيزتي زفيتلانا يسعدني أن ألفت عنايتك بأنك أنت من قمت بقتل إليوفا وحرق جثتها ودفنها بالغابة السّوداء ، أتنكرين ذلك ، وعندي الدّليل الذي يدينك ولست مضطرا لإبلاغك ما كنهه؟ ربما نتركه للمفاجأة أفضل ، فالمفاجأة لها وقع

iLovePDF

جميل على أمثالك ، أنا وأنت في الإجرام سواء ، وتذكري إن قمت بخرق السّفينة التي تقلنا في عوالم الإباحية و الجريمة سنغرق معا ، إذن تحركك باتجاه إلقاء كل اللائمة على شخصي يعني بالضرورة نهايتك أنت كذلك .

في طريقها للانصراف من المكان وبعد أن سمعت كل كلام جوزيف باحتقار وسخرية ـ التفتت صوبه من جديد -وأردفت بالقول :

_سأفعل إذن كل الذي أريده ولا أحتاج لإملاءاتك و أوامرك الغبية ، وبالنّهاية أنت من ستدفع الثمن لوحدك ، وسترى ؟!

غادرت زفيتلانا المكان على عجل تاركة جوزيف يقهقه من شدة السُّخرية والـــــــــــــــــــــتّهكم ،وهـــــــــــــــــــــو يتمـــــــــــــــــــــتم :

_سنرى أيتها الغبية من سيسحب الكرسي بالأخر؟

ولأن المشاكل لا تأتي فرادى بل دفعة واحدة ، ولأن القائد جوزيف كان ثملا ، مغرما بالتّعدي على حرمات الغير رغم أنه يمثل الكنيسة في البلدة ، بل إنه في نظر القانون والدّين والناس رجل دين محترم يعمل على إشاعة الحق والمساواة والعدل بين أفراد المجتمع ، بل وحل كل مشاكلهم والوقوف معهم في السّراء والضّراء وحين البّأس ، فلقد كان -والواقع هذا- يستغل المنصب و الوظيفة في إرواء غرائزه و ابتزاز الناس ليكوّن ثروة بخداع هذه وذاك ، دون وازعٍ قيمي ، إنه يزيد كل مرة في حجم شهواته والناس خائفون من الإبلاغ عليه بحجة المكانة الدينية والاجتماعية التي يتمتع بها وكذا لضحكه على ذقونهم بكلامه المعسول ووعوده .

iLovePDF

لكن لم يكن في حسبانه أن نيكيتا سيستغل ظروف المنطقة التي تعيش أسوء حالاتها بسبب عدم الاستقرار الأمني ونذر الحرب التي تدق طبولها كل برهة زمن، ولا يسمع ذلك إلا الأطرش في الزّفة .

حيث أنه وفي يوم ماطر قصد البيرهافيا للقاء جوزيف على عجل حيث ضربا موعدا في إحدى المطاعم الصغيرة لعدم إثارة انتباه عائلته التي قد تشك في أي شيء لما يتمتع به جوزيف من معرفة ولعلم نيكتيا أن زفيتلانا قد تثير له القلاقل في أيه لحظة وقد تساومه بناءَ على ذلك ، وهو موهن حتماً؟

التقى الرجلان في مطعم رافيتسا ، حيث البّساطة والهدوء في أرجاء المكان ، لم يلبث جوزيف مطولا في صمته حتى بادر بسؤال نيكيتا ، تحت طائلة سحابة من التّعجب :

_ لما طلبتني سيّد نيكيتا ، أرجوا أن تكون الأمور على ما يرام، وأن طلبك لي بناء على مشكل ما صادفك في عملك أو استشارة في مسألة دينية .

تبّسم نيكيتا من كلام جوزيف ، ثم رد في هدوء ساخر :

_ يعجبني فيك صديقي ذلك الهدوء والثقة بالنّفس، وأنت تفتتِح الجلسة بهذه الدّيباجة المنمّقة ، أنك فعلا رجل ملهِم لغيرك وبالضرورة لم يخطئ من بوأك هذا المنصب الرفيع كرجل دين محترم يحظى بتوافق جميع الناس وبرضا الرّب ، لكن أنصحك بأن تقول هذا الخطاب المنمق إلى المغفلين والذين يصدِّقون أن الدّين البالوماري الذي نعتنقه صحيح وغير محرف، وإلى أولئك الذين عاندتهم الحياة فرأوا فيه وفيك الخلاص المزعوم ،أتمنى صدقا أن تقول هذه الكلمات لأولئك المعذبين داخل مبنى بيت العبادة ،عموما لقد وجّهت لك دعوة غداء أو عشاء هنا

iLovePDF

ولـيس فـي بيتـي لنـتكلم بأريحيـة ونسـتفيد جميعـا مـن وجاهـة أرائـك ونصـائحك الثمينـة ! لكنـك تعلـم بالمقابـل أننـي ضـقت ذرعـا منـك ومـن تصـرفاتك السـمجة التـي مـا فتئـت تقوم بها في ما يخص قضيتنا !؟.

رد جوزيف مندهشا :

_عـن أيـة قضـية تـتكلم صـديقي !؟ ، لا يوجـد بيننـا قضـايا تسـتدعي هـذه المقطوعـة كلهـا عزيـزي نيكيتـا ، لـم يكـن يـدري جوزيـف أن نيكيتـا أصـبح يشـك فـي تصـرفاته وفـي علاقاتـه مـع مافيـا السِّـلاح فـي كـل مكـان ، وهـي علاقـات سـرِّية لا يمكـن أن تخـرج إلـى العلن بحال من الأحوال.

رد نيكيتا :

_ أنـت تعلـم عزيـزي جوزيـف أن الوضـع الأمنـي فـي المنطقـة جـدّ متـدهور ، ونحـن حسـب مـا بلغنـي مـن الأصـدقاء - ولسـت مضـطرا لسـرد أسـمائهم - أن حربـا ربمـا تنـدلع فـي لحظـة مـا ، وهـذا يعنـي لنـا الكثيـر ، إنـه بالنهايـة أمـر جيّـد علـى كـل حـال .

_ إذن، مـا الخطـب ؟ ، إن كانـت الأمـور فـي سـيرورة يتمناهـا كـل إنسـان يبتغـي السّلام ..؟

قاطعه نيكيتا بعد أن تناول رشفة ساخنة من الشّاي :

_ ولكننـا نشـتري السّـلام بشـكل ظـاهري وهـو نشـاط رسـمي قـانوني بالنسـبة لـي ولـدي الأوراق الثبوتيـة فـي هـذا الشـأن ، لكـن أنـت تعلـم مـا الـذي أقصـده بقـولي ، مـا أقصـده صـديقي هـو تجـارة التهريـب عبـر الحـدود ، ذاك هـو النشـاط الـذي يـدِّر علينـا المـال الـوفير ، حينمـا أسـتعنت بـك فـي هـذه المسـألة لـم يكـن القـرار عبثـا ، بـل بعـد

iLovePDF

دراسة مستفيضة ، أنت رجل تمثل التيار الدِّيني في المجتمع ومعين في منصبك بقرار سياسي فوقي ، ولا شبهة عليك البتّة لا من طرف الجهات الرسمية ولا من الجهات الشعبية ، ضف إلى ذلك وجود علاقات قوية ومتشعبة مبنية في جلها على المصالح الشّخصية ، والتي كونتها مع شخصيات نافذة في المجتمع ومع مسؤولين سامين ، بحيث يؤهلك كل هذا إلى الاضطلاع بالمهام التي ننشدها .

حملق برهة زمن في المكان ، ثم واصل :

_ عزيزي هدفنا تهريب أكبر ،و صيد من المّال أوفر ، هذه هي المعادلة الصّائبة ، يجب أن تتحقق مهما كلّف الأمر ، يجب عليك استغلال منصبك ونفوذك ، وحصّتك مضمونة دائما ولم ولن أحددها لك بقيمة مالية معينة ، نصيبك يتوقف دائما على حجم و نوعية وقيمة العملية التي نقوم بها .

تابع نيكيتا كلامه بعد أن أخرج ملفا ورقيا به قيمة مالية معتبرة وضعها في جيب جوزيف ، قائلا :

_ هذه هدية بسيطة مني نظير عملك معي وإسهامك في إنعاش عملنا ، وتذكر أن السّخاء يزيد كلما زاد مجهودك ، لكنني وحتى أكون صادقا معك شريكي الغالي ، لقد أعبت عليك بعض الشيء ، أعاتبك عتاب الصّديق لصديقه .

اندهش جوزيف، وبِشرٌ ظاهرٌ على وجهه بعد أن جذله المال الذي ضخّه له صديقه في جيبه، قائلا :

_هل هناك تقصير، أم شيء ما لا يسير على ما يرام ؟.

_ نعم ، وهذا هو حجر الزّاوية ومرمى الحجر في قضيتنا ، وهو الشيء الذي دفعني ابتداءَ للتواصل معك و سعيي في طلبك، أنظر عزيزي جوزيف ، لقد بلغني

iLovePDF

أنك على اتصال بجماعة أخرى تنشط في مجال الإتجار بالأعضاء البّشرية وتهريب السلاح إلى خارج الحدود ، أبلّغك قبل فوات الأوان أن هذا الأمر يقلقني ويقض مضجعي و يخلط حساباتي ، أولا لأن العمل مع مثل هؤلاء النّاس يسرقك منا ويفقدنا جهد أحد الأعضاء النشطين الفاعلين ، ثانيا يقلقني فعلك لأنه قد ينكشف أمرنا وقد تصبح أداة في يدهم فتبلغ عنا أو أنهم يشكُّون في تصرفاتك وفي علاقتك معنا فنتعرّض للمساومة والابتزاز ، أو قد يبلِّغون عنا مباشرة ، ولهذا أنصحك بتفويت الفرصة عنهم وعن كل من يتربص بنا السّوء وهم كثرٌ على كل حال ، ودعْ عنك مطامعك التي قد تقوِّض عملنا إلى النهاية المحتومة ، عليك بإنهاء علاقتك بهم .

_ لا أستطيع أن أكذب عليك ، كلامك كلّه عين الصواب ، لكن لي شرط إن أردت أن أستجيب لطلبك ؟

_أنا أسمعك، قل ما هو شرطك ؟

_ أن آخذ من كل عملية نقوم بها سويا ما مقداره 10 قطعات ذهبية إضافة إلى حقي المعتاد . استغرب نيكيتا هذا الجواب بالقول :

_ولكن هذا هراء ، بل جنون ، الا تعلم أن ما نجنيه من العملية يقسّم على عدة أقسام حيث لنا شركاء ، ضف إلى ذلك المبالغ التي ندفعها لبعض الجهات من أجل شراء صمتها عن ما نقوم به ، إذن فما يتبقى ليس بالشيء الذي تتصوره ، دعنا نتفاوض بحيث يستفيد كل منا ويرضى ، أنا أمنحك نظير عملك 5 قطعات ذهبية إضافية .

_بل سبعة قطعات ذهبية ، لقد تنازلت عن ثلاثة متبقية .

iLovePDF

لم يكن من بُد سوى أن أضاف نيكيتا شيئا لإرضاء صديقه ، قائلا :

_ سنتقاسم الطريق أنت قلت سبعة و أنا قلت خمسة ، سأمنحك ستة قطعات ، ثم إنك أنت من أردت أن تحدد المبلغ الذي تستفيد منه عن كل عملية بقيمة مئوية قارّة لا تتغير منذ البداية .

لم يكن الطرفان على صدق حيث أن كلا منهما يريد الاستئثار بنصيب أكبر من المال ولكن التحالف الذي يربطهما و سرية القضية جعل كلا منهما يصبر على الآخر درء لكل مشكل قد يظهر في أية لحظة ، خاصة وأنهما يدركان جيدا أنهما يقومان بعمل محظور قانونيا وأخلاقيا وإنسانيا ، ربما كان كل واحد منهما يتربّص السُّوء بالآخر تمهيدا لمعركة تكسير العظام ، ولكن ربما لم يتبادر إلى علمهما ، أنّ قبل هذا المعركة الشّخصية ، قد تترصّد لهما في أية لحظة قوى الأمن معا بحجة خرق القانون والمتاجرة بأعضاء وحياة الناس مع سبق الإصرار و الترصد .

تزينت شوارع وجادات المدينة بمناسبة احتفالات رأس السنة الميلادية، بأضواء مختلف ألوانها و بأشجار أعياد الميلاد المجيدة ، لم تشذ الكنيسة باعتبارها المنبر الديني الأول و الوحيد عن تلك الاحتفالات حيث تم تسطير برنامج مكثف احتفاء بتلك الفعاليات التي ينتظرها عامة الناس طول أيام وشهور السنة بلهفة و شوق كبيرين .

لقد كانت فرصة ملائمة للقائد جوزيف للبروز و الظهور بمظهر المخلص الرُّوحي للنّاس من كل الفئات كالعادة ، إنه يدأب على عدم تفويت كل كبيرة و صغيرة في التّحضيرات ، خاصة وأنه تمّ مسبقا القيام بمراسيم لدعوة كل الشّخصيات البّارزة في المدينة من مسؤولين سامين و رجال مال و أعمال ، وهو

iLovePDF

ما يعتبر بحق فرصة ذهبية أخرى للقائد جوزيف، ربما لافتكاك مكانة رمزية أخرى على الأقل لدى هؤلاء ، فهو ينظر بالنهاية الى هذه المناسبة بعين المصلحة الشخصية التي قد تدرها عليه ، ثم لتنظيف مكانته وسمعته -التي ربما بدأت تحوم حولها الظنون - كرجل دين بارز في المجتمع له هيبته ورهبته التي لا يشق لها غبار ، أو هكذا يريد.

انطلقت الاحتفالات في موعدها المرسوم حسب القائمين على تنظيمه ، وماهي الا لحظات حتى سمع دوي انفجار شديد داخل إحدى أقبية بيت العبادة ، لم تتأخر سيارات وشاحنات الإسعاف كثيرا حتى كانت في موقع الحادث خاصة وأن شخصيات رسمية مهيبة داخلها ، لم تسفر تلك الانفجارات عن وقوع ضحايا بل خسائر مادية ليس إلا ، ولكن المذهل أن مصالح الأمن التي حلت بالمكان وباشرت في فتح ملف التحقيقات الأولية في عين المكان ، وجدت ملابس نسائية داخلية وعدة زجاجات و قنينات من المشروبات الكحولية ومهلوسات ومؤثرات عقلية.

انتهى الحفل قبل أن يبدأ ، و انصرف الناس خوفا من مغبة وجود عناصر تفجيرية أخرى ، تمّ استدعاء المسؤول الأول عن بيت العبادة القائد جوزيف حول الأشياء الموجودة داخل القبو وكذا عن معلومات عامة حول المكان ومن يرتادها دائما خاصة في الفترة ما قبل الحادثة ومن أمور أخرى .

نفى في معرض حديثه عن نفسه معرفة أي شيء ثم إيجاده ومصادرته ، وعن أية علاقة من قريب أو من بعيد في هذا الشأن ، أما عن من يرتاد المكان في الوقت ما قبل الحادثة فردّ بالقول بأنه لا يستطيع تسجيل جميع الوافدين أو معرفتهم خصوصا أنه مكان عام للعبادة وليس مقر خاص ، بيد أن كبير المحققين

iLovePDF

ألصق به مسؤولية العناصر التي عثر عليها ، وأنها تدخل في صميم عمله ومسؤولياته.

لم يكن على كبير المحققين سوى إثبات التهمة على جوزيف وإحالته على التّحقيقات النهائية المعمقة داخل المحكمة .

عند المحاكمة لم يتغير الشيء الكثير ، حيث جاء في منطوق الحكم أن المتهم له ضلع بطريق غير مباشرة في القضية الخاصة بالعناصر المحجوزة دون التفجير الذي طال بيت العبادة ليلة الأعياد ، حيث تم تخفيف الحكم بعزله نهائيا عن ممارسة أي عمل داخل أماكن العبادة الموجودة في البلد إلى أن يثبت مؤشر أو جديد يثبت براءته كليّة.

انتهت المحاكمة وانصرف الكل خارج المحكمة، وخرج القائد السّابق في تنهدٍ وحيرة، إنه يعلم أنه زير نساء وهو يمارس أفعاله بالفعل داخل أقبية المكان المقدس !! ولكنه مندهش حقا في كيفية وصول شخص ما إلى المكان وفعله لكل تلك الفوضى والعبث. والمشكل أن المفاتيح لا يوجد منها إلا نسخة واحدة وموجودة عنده دون سواه .

أمر أخر قضّ راحته وسكينته طوال هذه الفترة ، إنه لا يعلم يقينا من هو الشّخص الذي له ضلع و مصلحة فى هذه التفجيرات في ليلة كهذه ، و بحضور شخصيات مرموقة في المجتمع ، إنه يتحسّر ويضرب أخماسا بأخماس، ويلعن حظه البائس ، وهو الذي كان يخطط لجلب انتباه أصحاب النفوذ ، ويمارس طقوسه الشاذّة والاعيبه السمجة لمزيد من الوقت .

iLovePDF

إنــه يتحسـر كونــه لـم يبلـغ عـن بعـض مـن أعدائــه الـذين يشـتبه فـي ضـلوعهم فـي تلـك العمليـات ، إنــه يشـك فـي نيكيتـا و فـي زفيتلانـا وفـى آندريـه وفـى الفتيـات اللـواتي مـارس معهـن المحظـور بـدافع حـل مشـاكلهن أو اللـواتي لـم يـدفع لهـن نظيـر أفعـالهن ، إنــه بالنِّهايــة يـدرك تمـام الإدراك بأنــه يمتلـك أعـداء كُثُـرٌ لا حصـر لهـم ، ثـم إنــه يفكـر بــالرُّجوع إلــى منصــبه ســواء داخـل المدينــة أو خارجهـا، لقـد إعتـاد علـى هـذا المركـز الاجتمـاعي والمـالي المرمـوق، إنــه لا يريـد الرُّضـوخ إلـى الأمـر الواقـع وفعـل أي شـيء يستعيد به مجده التّليد.

و لكنــه إلــى ذلـك أراد أخـذ وجبـة مـن الرّاحـة لإعـادة ترتيـب أفكـاره وصـيّاغتها علـى نــار هادئــة، والابتعــاد عــن كــل صــخب و ضــجر، والنــأي عــن النّــاس ومشــاكلهم وأسـئلتهم التـي قـد يمطرونــه بهـا وعـن تهكمـاتهم واسـتهزائاتهم التـي سيلسـعونه بهـا وهو في وضع جحيمي موجع.

اتخـذ مـن أحـد الأكـواخ التـي علـى حافـة المدينـة مـأوى لـه ، ربمـا كـان هدفـه الأسـمى مـن ذلـك هـو تمويـه النّـاس وإشـغالهم ، وهـم الـذين يظّنـون بـه السُّـوء حسـب رأيـه وقـد كونوا فكرة الثراء الفاحش عنه .

إن الألســن ســتتناقل أخبــاره الماضــية، وكيــف كــان يكــوِّن الثــروة مــن خــلال مشـاريعه المشـبوهة وهـو أمـر لـن يغيـب عـن معرفـة النـاس علـى كـل حـال ، ثـم إن مـن قـام بإضـرام النـار ذات مـرّة فـي البيرهافيـا – مكـان العبـادة البالومـاري- نتيجـة عمليـة التفجيـر ، ومـن قـام بفـتح القبـو ووضـع تلـك الأشـياء بـه حـري بـه أن يكـون علـى إلمـام تــام بكــل تصــرفات جوزيــف ، ربمــا هــو تهديــد ووعيــد و تحــذير لمــا هــو آت ، وربمــا يعقــب هــذا الأمــر بــث أخبــار عــن ماضــي وحاضــر قائــد بيرهافيــا المدينــة المغــادر ،

iLovePDF

وأخبار مثل هذه إن حصل وإن انتشرت ستنتشر انتشار النّار في الهشيم ، وسيصدق النّاس كل الروايات مهما كانت ، حتى وإن كانت مجرد أراجيف حقيرة .

مرّت الليلة العاصفة وحولت أعياد الميلاد إلى شبح يسكن ساحات وباحات وبيوت المدينة الهادئة ، إن السكان صاروا يتداولون أحاديث حولوها إلى سخرية علّهم يتناسون الجحيم الذي رأوه رأي العين ، فالقائد البالوماري الأعظم توخارين حمل معه متفجرات بدل الهدايا هذه السنة ، وأراد أن يبدأ سنتهم الجديدة بكابوس جعل الكثيرين منهم يدخل دائرة التشاؤم والعبوس من هواجس قد تحدث وتتكرر في أي لحظة ما .

إنهم يعودون بذاكرتهم الجماعية إلى الماضي القريب حين عاصروا وعاشوا حربا همجية مرّت على بلدهم ،فدكّتها دكّا وتركتها قاعا صفصفا ، يتوجسون خيفة من كل شيء ، يخافون أن تتحول تفجيرات عابرة إلى جحيم أليم دائم ، لقد أيقن كثير منهم بالتجربة وبِعبر التاريخ و دروسه ، أن المآسي والآلام التي طالما نسبها بعض النّاس لِأشخاص من ديانات أخرى حسب التعليقات و الروايات و المزاعم التي يعلقون عليها فشلهم أو التي ينشئونها بغرض تصفية حسابات بغيضة بينهم ، ماهي الا أراجيف قذرة أدحضتها تحقيقات نزيهة موضوعية لقضاة يعملون بضمير وبشرف ، ربما سيُحوّل بعض النّاس في مجتمع مادي مثل هذا - في القابل - مجتمعاتهم و نظمهم قبائل متناحرة وتستحيل أوطانهم المتكتّلة إلى أوطانٍ مبعثرة متناثرةٍ ، وسينزعون لفعل نفس الأمر في عوالم أخرى تحت مسميات مختلفة ، إنه منطق المادية و البراغماتية البغيض ، حيث لا دين و لا أخلاق ولا انتماء ولا هويّة ولا إنسانية .

iLovePDF

لـم تكـن أيـام وليـالي المدينـة البّـاردة لتختلـف و تتغيـر، إنـه التشـابه طبـق الأصـل، يمـرُّ الشّـتاء بكـل لحظاتـه وحيثياتـه، بكـل تفاصـيله ودقائقـه، بكـل ثوانيـه وسـاعاته، لا يريـد التّغييـر و لا الـذّهاب، إن النّـاس يحسـون بأنـه عـام كامـل ولـيس فصـل بأشـهر ثلاثـة !! مـا يوجـع النـاس و يـراكم مشـاعرهم الهـمُّ والغـمُّ ، هـو أن جـلّ الحـروب والمآسـي التـي مـرت علـى بلـدتهم كانـت فـي هـذا الفصـل الـذي يعيشـونه بلـذة مفقـودة للموقـد وللقهـوة السّـاخنة وللسّـمر ، وبـألم الجريمـة المنظمـة التـي أفرزتهـا حـروب قـذرة أهلكـت الحـرث والنسـل ذات يـوم ، لكنهـا اليـوم تريـد العـودة بشـكل مخيـف ومقزِّز.

حتـى البيرهافيـات مقـر العبـادة وموطنهـا أضـحت فارغـة موحشـة ، لـم يعـد لهـا رواد يرتادونهـا ولا مشـتاقون يحنِّـون إليهـا ، إنهـا فـي مخايـل العقـلاء مـنهم وكـرٌ للشّـاذين ومرتـع لممارسـة المحظـورات والفسـق والفجـور ، ومكـان لإزهـاق الأرواح و ترويع النّاس.

إن الـرّب البالومـاري –سـرادوس - الـذي يحبّـون ويعبـدون وزلفـىَ إليـه يتقرّبـون ،وهـو بـداخل البيرهافيـا لا يتحـرّك ولا يملـك لنفسـه نفعـا ولا ضـرا ،لـم يكـن يعلـم مـا الـذي سـيحدث ولـو علـم لفـرّ بجلـده أو لمنـع مصـائب مـن الحـدوث أو لأخبـر مـن حولـه بضرورة إخلاء المّكان ...

إنـه يقـين ماريـا التـي تحـدث والـدتها هـذا الحـديث، و دمعـة دمٍ تسـقط فـي قلبهـا قبـل عينهـا ، ربمـا هـي اليـوم تـزداد يقينـا بتلـك المشـاعر التـي ظلـت تراودهـا فـي أوقـات سـابقة ، إنهـا تلِّـح علـى والـدتها بالسَّـفر والخـروج مـن هـذه البلـدة الظـالمِ أهلهـا ، تريـد العـيش فـي اسـتقرار وفـي أمـان، تريـد معرفـة طريـق الخـلاص ،حيـث تتحـول الحيـاة مـن

iLovePDF

حلـم موجـع إلـى حقيقـة جميلـة آسـرة ، تريـد تحقيـق حلمهـا الـذي يعـيش دائمـا فـي وجدانها ،وتسعى بقوتها وضعفها إلى وضعه موضع النّفاذ.

لـم تكـن والـدة ماريـا تـتكلم كثيـرا بـل كانـت تحبـذ سـماع كلمـات وزفـرات ابنتهـا، إنهـا تعلـم أن مجـرد الإصـغاء إليهـا والإنصـات لهـا، يمنحهـا طاقـة إيجابيـة و يخفـف عنهـا الكثير من الأوجاع، حتى ولو لم تغيّر لها كثير من الأوضاع.

ولأن الأوضـاع لا تسـير دائمـا علـى نحـو جيـد ، فـإن جوزيـف بـدأ يـدخل فـي حيـاة جديـدة ، حيـاة بـدون اسـم ولا مركـز ولا طعـم، ولا أنـاسٌ يتقربـون إليـه زُلفـى ، إنـه اليّوم رجـل نكـرة يعـيش فـي كـوخ فـي طـرف المدينـة ، يعلـم أن لديـه المـال الكـافي لفعل أي شيء يريد ، و تحقيق اي حلم و يزيد .

لكنـه يصـطبر علـى الوضـع الـذي آل إليـه حتـى يـوهم النـاس بأنـه بـرئ مظلـوم ، و بأنـه لا يملـك لا الفتيـل ولا القطميـر ولا أكثـر مـن ذلـك ولا أدنـى، و بـأن أي خبـر قيـل عنـه لـيس سـوى نفـخ فـي الرّمـاد ، لأجـل ذلـك يتحمـل كـل هـذا البـرد القـارس ، حيـث لا يجابهه إلا بخرقة بالية يلبسها ،لا تدفع عنه حتى نسمة جو هادئة .

لـم يكـن صـعبا علـى زفيتلانـا العثـور عليـه، طرقـت البـاب -وهـي تلـبس لباسـا تنكرّيـا حتـى لا تلفـت انتبـاه أحـدهم - حينهـا توّجـه جوزيـف لفـتح البـاب وهـو يسـتغرب فـي زيارتهـا لـه ، فـتح البـاب لكنـه لـم يعرفهـا حتـى أماطـت اللّثـام عـن وجههـا ، وهـي تقـول :

_لماذا لا تفتح الباب بسرعة أيه المعتوه ؟

iLovePDF

_هـذه أنـتِ، بالكـاد عرفتـك، أنـت تعلمـين أننـي فـي وضـع لا أحسـد عليـه ، ولـذلك فـررت مـن المدينـة وأهلهـا ، وأنـا اليـوم أعـيش هنـا بمفـردي ، ولكـن مـن الـذي دلّـك على المكان الذي أنا فيه ، ثم أريد أن أعرف ما سبب زيارتك لي ؟

_أولا ، لسـت أنـا مـن يعجـز عـن الوصـول إلـى شـيء فـي مـرادي ، ولا يهمـك بالنِّهايـة كيـف عرفـت ؟ ثانيـا، أنـت تعلـم أننـي لا أقـوم بزيارتـك حبّـا وكرامـة فيـك ، دوافعي دائما المصلحة وحسب .

_مـاذا تريـدين منـي فعلـه بعـد كـل الـذي ضـاع، ثـم إنـك تعلمـين بـأنني لسـت أنـا مـن كـان وراء ذلـك الحـادث المخجـل ، إن الأمـر مـدبر بكـل تأكيـد ، لـم تـأت الأمـور علـى كـل حال صدفة لا زمانا ولا مكانا .

ضحكت زفيتلانا بسخرية وهي تقول :

_ أعلـم أنـك تشُـك فـي الفاعـل، ولكـن أعلـم كـذلك أن فـي مخيّلتـك مـا لا يقـل عـن المائـة مـتهمٍ ومتهمـة، أتعلـم لمـاذا عزيـزي ؟ لأنـك ببسـاطة عـدوٌ لنفسـك ولغيـرك ، أنـت تتحمـل جـزءا مـن تصـرفاتك الحقيـرة ، أنـت تعلـم أنـه لـن تكـون المغـانم إلا بقـدر المغـارم ، ولـذا وجـب عليـك تحمُّـل كـل الـذي أنـت عليـه ، وعليـك أن تشـكر القاضـي الذي خفف عقوبة الحكم عليك.

بُهـت جوزيـف للكـلام الـذي تتفـوه بـه صـديقته اللّـدود ، يُخـال إليـه أنهـا مجنونـة ووجـب إدخالهـا مصـحة نفسـية أو عقليـة ، اسـتدار نحـو نافـذة البيـت وظـلّ يـتمعن هنيهـة فـي القمـر الـذي يضـئ المكـان برهـة زمـن ، ثـم تحجبـه غائمـات تـدفعها الرّيـاح فتسـبح فـي الفضـاء حيـث الاتسـاع و الرحابـة و الحريـة التـي يتـوق إليهـا ، ثـم انطلـق يتكلم بصوت خافت :

iLovePDF

-أيـن تريـدين الـذّهاب بأفكـارك هاتـه ، و بتصـرفاتك الغريبـة ؟ لـم أحـس يومـا ولا حتـى لحظـة زمـن بكونـك أنثـى ، لمـاذا كـل هـذا الشّـر الـذي تتـأبطين ؟ أنـت لا تريـدين أن يبقـى لـك صـديق حمـيم ، ولا شـخص مقـرب أمـين ، أنـت تخسـرين كـل النـاس ، وستؤذين نفسك كثيرا، ولن يدوم الحال هكذا أو كما تتوهمين !.

التفت إلى حيث تقف ثم تمعّن النّظر في عينيها في صمت، لم يطل وأردف قائلا:

_زفيتلانا ، أنا أشك في كونك قد قمت بتصرف مجنون خلال الفترة السّابقة ؟

ضحكت دون توقف، ثم ردت في استهتار:

_تشـك !؟ إن كنـت تشُّـك عزيـزي فـي كـوني أنـا مـن تقـف وراء حادثـة الكنيسـة فأنـت مخطـئ حقـا ، أنـت تشـك فـي نفسـك ربمـا لكثـرة الشـرّ والخبـث الـذي يسـتقر فـي نفسـك ، لقـد جئـت إلـى هنـا لأننـي أعلـم بأنـك تشـك ، وحتـى أزيـل عنـك هـذا العنـاء فـإني أريـد أن أخبـرك بـأنني أنـا مـن قمـت بهـذا الفعـل يقينـاَ ، اتعلـم لمـاذا ؟ لأننـي أريـد أن أبـرهن لـك أيهـا المغفـل بـأنني أسـتطيع فعـل أي شـيء، فـي الوّقـت الـذي أريـد، و فـي الزّمن الذي أريد.

علـى العمـوم أنـا لا أريـد تريّثـا وتضـييعا للوقـت واسـتنزافا للجهـد ،عليـك أن تسـمع وتنفـذ مـا أمليـه عليـك الآن ، يجـب عليـك التوقـف حـالا عـن أي تعامـل مـع تلـك العصـابة التـي يـديرها نيكيتـا ، فمـن السـذاجة الاعتقـاد بكـوني لا أعلـم شـيئا عـن ذلـك ، تتـاجرون وتهربـون السِّـلاح عبـر الحـدود ، لـدي وثـائق تـدينك أنـت وذلـك الغبـي ، إن كنـت تريـد النّجـاة بنفسـك مـن مشـاكل إضـافية عليـك بتصـفية نيكيتـا، وسـيكون مـن نصيبك هدية لن تنساها ما حييت .

كفهر وجه جوزيف ، ولم يصدق ما تقوله زفيتلانا :

iLovePDF

_ هـذا جنـون مـاذا تقـولين ؟ هـذا كـلام خطيـر ، بـل إنـه غيـر مسـؤول ، و إتهـام خرافـي لا يمُـت للوّاقـع بصـلة ، ثـم مـا الـذي تطلبينـه منـي أن أصـفي نيكيتـا ، هـل ترينني قـاتلا ، وحتـى وإن كنـت علـى اسـتعداد لفعـل ذلـك ، مـا هـو السّـبب الـذي دفعـك لطلـب هـذا الأمـر ، إن كانـت لـديك مشـاكل عالقـة أو تصـفية حسـابات معـه ، فهـذا حتمـا أمـر يخصـكما دون غيركمـا أنـا أنـأى بنفسـي ، هـل تريـدين أن تثبـت تهـم أخـرى علـيّ ، ألم يكفكِ الوضع الذي أنا عليه ؟ هل فقدتِ الإحساس ؟ .

_هـذا كـل مـا عنـدي ، أنصـحك بتطبيـق كـل مـا قلتـه لـك بـدون اعتـراض ولا امتعـاض ، سِـر فـي طريقـي وسـتربح الشـيء الكثيـر ، أنـت الآن إنسـان مثيـر للشـفقة ووثائقـك ملطخـة لـدى مصـالح الأمـن ، وسـمعتك سـيئة للغايـة لـدى النـاس ، إن كنـت تطمـح للرُّجوع مجددا إلى مهنتك ومركزك فأنت مخطئ .

انصـرفت زفيتلانـا تاركـة البـاب مفتـوح ومعـه كثيـر مـن التسـاؤلات والأفكـار فـي ذهن جوزيف ،ربما سيجد لبعضها أجوبة ولكن ربما بعد فوات الأوان.

جلـس جوزيـف لوحـده بعـد أن أوصـد البّـاب، يفكـر ويُمعِـن النّظـر فـي الكـلام الـذي قالتـه لـه زفيتلانـا لتّوهـا ، وكـذا فـي الكـلام الـذي قالـه لـه نيكيتـا فـي وقـت سـابق إنـه بقـارن مـا بـين الشّخصـين ،ومـا بـين الحـديثين ومـا بـين المصـلحتين أي منهمـا يختـار ؟ أيهما تدِّر عليه أرباحا طائلة ؟

لـم يلبـث إلا لحظـة حتـى سـمع قرعـا للبّـاب ومعـه صـوت زفيتلانـا ،هـرول لفتحـه فاندفعت بسرعة وهي تخاطبه :

_أعلـم أنـك سـتتعذب كثيـرا فـي تفكيـرك ، مـاذا سـتختار ؟ أي الطّـريقين تسـلك ؟ علـى كـلٍ أنصـحك نصـيحة محـبٍ، إن نيكيتـا عـدوٌ لـك بالنهايـة ، وسـيأتي يـوم يـتخلص

iLovePDF

منك فيه، خاصة أنك اليوم بلا منصب وبلا مركز ، إن تخلصت أنت منه أولا ، ربما سينصّبك أولئك المعتوهين زعيما لهم وسيشكل لك ذلك رجوعا للمنصب والقيّادة والرّيادة التي تريد ، وكذا إدرار مدخول إضافي من المال ، هذا غير ما ستجنيه مني شخصيّا ، عموما سأقضى معك اللّيلة ، وسترى كم أنا حريصة عليك وعلى مصالحك ، حتما سوف لن تجد شخصا يحبك مثلي . ثم ما لبثت تقول:

_آه أريد أن أذّكرك بأمر آخر ،إن تركت نيكيتا حيّا ، سيحرمك من شطر كبير من المّال الذي يجنيه، ذلك أنك الآن إنسان عادي فقط، لقد زال عنك سلطانك الكنائسي و رتبتك الدِّينية التي صنعت لك اسما ووسما ، وجعلت محظورات وممنوعات ومهرّبات تعبرُ وتمرُّ بإشارة منك وهذا الشيء انتهى الآن ، و نيكيتا بلا ريب لن يرحمك .

قرر جوزيف بعد عميق التّفكير، أن يسلك الطّريق الذي رسمته له صديقته ، لقد رسم الخطة وهو في انتظار فريسته للانقضاض عليها.

لم يمض أسبوع على زيارة زفيتلانا ، حتى حلّ وفد من العصابة- التي تتاجر في الأعضاء البّشرية وتهريب السّلاح على جوزيف- وقد استغرب من زيارتهم له ولمعرفتهم للمكان .

اقترب أحدهم منه، قائلا:

_لقد بلغنا أنه تم عزلك من عملك كقائد للبيرهافيا ، وهو أمر سيء جدا بالنسبة لعملنا معك ، كنت تسهّل لنا الكثير من الإجراءات ، نحن اليّوم لسنا بحاجة إليك، ولا مال لك عندنا ، أنت اليوم مطالب بالقضاء على عدونا اللّدود في مجال التّجارة التي نمارس، ولقد علمنا أنك كنت لوقت طويل تشتغل معه ، إما أن تقضي عليه و

iLovePDF

إمـا أن تـدفع ثمـن فعلتـك غاليـا ، و إيـاك أن تبلـغ عنـا مصـالح الأمـن ،أنـت تعلـم بعـدها مصيرك المحتوم ؟

غـادر الوفـد المكـان حـالا ، تـاركين جوزيـف فـي حيـرة مـن أمـره حـول فرضـية وجود علاقة بين الجماعة و زفيتلانا ؟

إن خطبـاً مثـل هـذا يجعلـه يـزداد تمسـكا بالحـل الـذي تبنـاه مـؤخرا، إنـه يسـابق الـزّمن مـن أجـل القيـام بتنفيـذ مهمتـه القـذرة، ونفـاد الوقـت سـوف لـن يكـون بالنّهايـة في صالحه.

iLovePDF

3.ثلاثة جهنّم.

iLovePDF

اختـار جوزيـف إحـدى اللّيـالي التـي نظّمـت فيهـا البلـدة تظـاهرة ترفيهيـة حضـرتها العـائلات و الضّـيوف مـن كـل فـجٍّ ، كـان عليـه اغتنـام الفرصـة جيـدا وعـدم اضـاعتها ، لـذا فإنـه تقـبّض علـى أقربهـا وأسـنحها ، اختبـأ وراء الجـدار الـذي يقابـل بنايـة متجـر نيكيتـا وظـل يراقـب الوضـع عـن كثـب ، مكـث غيـر بعيـد أكثـر مـن سـاعتين تحـت أجـواء بـاردة جـدا ، و حركـة سّـير منعدمـة بسـب انشـغال النّـاس ، هـمّ بالانصـراف وفـي لحظـة حاسـمة ظهـر نيكيتـا متجهـا صـوب المحـل ، تمهّـل جوزيـف لحظـات حتـى تأكـد مـن أن نيكيتا قد ولج محله فعلا .

التفت فـي كـل الجّهـات للتأكـد مـن أن لا أحـد يراقبـه أو يمـر بـالقرب مـن المكـان إيـاه ، مـا جعلـه ينـدفع بسـرعة مذهلـة ، ثـم مـا لبـث أن اقتـرب أكثـر ثـم دخـل ، تسـمّر نيكيتـا فـي مكانـه مرتعبـاَ ،حيـث لـم يعـرف هويـة هـذا الكـائن الغريـب ، لـم يكـن لـه أن يعـرف – والحـال هـذه – فجوزيـف كـان يلـبس لباسـاَ أسـوداَ ملـثم الوّجـه، لا يظهـر منـه سـوى عـين واحـدة ، ويلـبس قفازتـان ، ولمّـا صـار فـي مقابلـة طريدتـه ، أزاح اللّثـام عـن وجهه وفكّ اندهاش نيكيتا :

_أنـا جوزيـف ألـم تعرفنـي صـديقي ، جئتـك لأخـذ مبلـغ مـن المـال إلـى وقـت لاحـق ، هل أجد لديك ؟

_ولكـن لمـاذا تتنكّـر فـي هـذا اللبـاس الغريـب ؟ ولمـاذا لـم تخبرنـي بمجيئـك ؟ ولمـا أتيـت فـي هـذا الوقـت بالـذّات ؟ لمـاذا لا نـذهب سـوِيا إلـى الفعاليـات المنظمـة بالبلـدة، ثـم يكون لك ما تريد ؟

_لا. لا ،أريد أن تمنحني ما طلبت ، لا وقت لديّ الآن ؟

تفطّـن نيكيتـا إلـى أن جوزيـف يريـد أن يلحـق الأذى بـه ، فهـو لا يبـدو فـي أفضـل حـال ، أمـر مثـل هـذا يجعلـه فـي تـوّجسٍ وخيفـة مـن أن يقـوم بسـرقة المـال الموجـود

iLovePDF

داخـل الخزانــة ، تنــاول بسـرعة قضـيبا حديـديا وتوجــه لضـرب صـديقه العـدو ، لكـن جوزيــف أنفلــت يمينــا حيــث اتجهــت الضّــربة و انحرفــت بمقــدار زاويــة ، فلــم يصــب بــأذى ، ومـن قـوّة الضـربة سـقط نيكيتـا أرضـا فـي اثناءهـا. وفـي لحظـة غـادرة ملؤهـا الشّـر المتطـاير ،سـحب جوزيـف خنجـرا صـغيرا مهترئـاَ غارسـاَ إيـاه فـي صـدر صـديقه ، تقـبض علـى المـال الموجـود وتـرك صـديقه فـي بركـة دمـاء ، لـيهم حينهـا بالانصـراف .

ثـم توجــه مسـرعا بحمولتــه صـوب الكُّـوخ الـذي يسـكنه ، وكــأن شـيئا لـم يحـدث ، ربمــا بتصـرفه هـذا يريـد أن يثبـت للجميـع – فـي حـال الرّيـب فيـه – أنــه بـرئ بـراءة الذئب من دم يوسف .

انتهــى الحفــل الترفيهــي الــذي نظــم فــي البّلــدة ، وعــاد الجميــع أدراجهــم ، انتظــرت ماريــا و والــدتها عــودة نيكيتــا إلــى المنــزل ، لكــن لا شــيء مــن ذلــك حــدث ، الجميــع علــى أعصــابه بمــا فــيهم خَدمــةُ البيــت وحشــمه ، عــدا زفيتلانــا التــي أرادت التّظــاهر بالتّوتر و الخوف ،ولكنها في ما يبدو وكأن شيئا من الفرحة يغمُر عينيها .

رنّ هــاتف البيــت فتوجــه أحــد الخــدم للإجابــة - إنــه رقــم هــاتف مستشــفى نافاروفــا الكبير -رفع السّماعة يقول :

_هليو . هنا بيت السيد نيكيتا مرحبا ، من معي ؟

_ عفوا سيدي، ربما كلمناك في وقت متأخر.

_ ما الخطب سيدي ؟

_لـدي خبـر سـيء لكـم ، إن السـيد نيكتيـا قـد تعـرّض لهجـوم داخـل محلـه مـن طـرف مجهول لاذ بالفرار ؟

_عفوا ولكن ماذا تقول ؟ كيف حصل هذا ، و متى ؟ .

iLovePDF

_لا نعلم بالضبط ولكن تمّ فتح تحقيق بشأن معرفة كافة حيثيات وملابسات القضية ؟ .

_كيف حاله الآن سيدي ؟ هل إصابته خطِرة ؟

_يبدو أن السيد نيكيتا تعرّض للضرب بآلة حادة على مستوى الصّدر ، لقد نزف كثيرا من الدّم ، وهو الأن في غيبوبة تامة ، أرجوا منكم الالتحاق بالمستشفى ، شكرا لكم سيدي .

عرف الجميع من خلال المكالمة كل شيء، لم تتمالك ماريا نفسها حيث سقطت أرضا فاقدةَ للوعي .

تظاهرت فجأة زفيتلانا بالحنان الفّياض عندما هرعت صوب أختها غير الشقيقة ، حيث حملتها وحاولت إفاقتها برشها بقليل من المّاء و وضع قليل من الكولونيا في أنفها و رقبتها ، استفاقت ماريا وجسدها يرتعش و فرائصها من الفزع .

كان على الجميع التّوجه حيناَ إلى المستشفى الذي يرقد فيه نيكيتا ، لم تمر سوى لحظة حتى وصل الكل إلى هناك ، لم يتم السّماح لهم بالدخول في بداية الأمر لوجود فريق من المحققين داخل الغرفة لأخذ أقواله بعد أن يستفيق من غيبوبته، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ويبدو أن الطبيب المشرف أراد من خلال إخراجه الفريق و إدخال العائلة إعطاءهم الفرصة لرؤيته آخر مرّة، بعد أن صار شبه متأكد من أن حالة مريضهم حرجة للغاية .

بقيت العائلة برهة برفقة آخرين غُرباء عن العائلة، حيث طُلب منهم الخروج، ليخبرهم الطبيب المعالج لاحقا أن فقيدهم قد رحل عن عالمنا.

مات نيكيتا وتسلّمت العائلة جثته لإجراء مراسيم الدّفن ثم العزاء ببيت الأُسرة ، في غضون ذلك لم تحرز تحريات فرق المحققين أي تقدم يُلحظ سوى شكوك هنا وهناك لم ترقى إلى الحقيقة المطلقة .

iLovePDF

وفود المعزّين لم تتوقف عن التقاطر إلى بيت الأسرة ، ومن ضمن الوافدين جوزيف القائد المعزول أو بالأحرى قاتل القتيل ، لم يكن سهلا على العائلة -عدا زفيتلانا - أن تعلم أو حتى تشك ولو رفة عين في كونه هو الجاني .

في تلك الأجواء الكئيبة حيث يخيم الحزن على ثغور العائلة ، انطلقت زفيتلانا في التظاهر بالبكاء أمام صديقها و شريكها موهمة الجميع أنها منهارة مما حدث لوالدها ، لكنها استطاعت في لمح البصر أن تبرم موعدا مع جوزيف في غابة لاتوفا من أجل منحه باقي مستحقات العملية و إجباره على مغادرة البّلدة حتى لا تصل له شكوك المحققين ، بل إنها تريد ذلك خوفا على نفسها منه .

انتهت مراسيم العزاء وانصرف الجميع ليبقى مقتل نيكيتا لغزا لم تحل شيفرته ، مضت الأيام و جوزيف على أحر من الجمر ينتظر موعد صديقته التي عاهدته بأن يكون الأجر على قدر العمل ، وأن مبلغا سخيا سيقبضه نظير فعلته .

حان وقت اللقاء حسب الموعد المرسوم ، التحق جوزيف مبكرا بالمكان في انتظار زفيتلانا ، انتظر طويلا إلى أن ظهر شخص يلتحف السّواد في الأفق ، ظنّ جوزيف في أول وهلة أن الضباب الذي يكتنف المكان هو من يصعب له في مدى الرؤية ، لكنه اتضح له بعد هنيهة زمن ، أن هذا الشخص رجل وليس امرأة ، تسمّر في مكانه وتمّلكه الرعب من هول ما رأى .

إنه اندريه حلاق المنطقة يحمل سكينا ، انطلق جوزيف يسير إلى الوراء ، لم يكن يعلم أن منحدرا وراءه. زادت خطوات اندريه تقدُّماً، وتسارعت خطوات جوزيف تأخراً، إلى أن وقع بعد أن تعثر وتدحرج أسفل المنحدر .

تقدم أندريه لينظر مكان سقوط جوزيف فلم يرى شيئا بسبب الانحدار الشّديد و الضباب الذي كان يلفُّ المنطقة ، كل الذي سمعه صوت عنيف ما لبث و أن انقطع تماما ، لم تمر سوى لحظة أو ما دون ذلك حتى سمع أندريه صوتا يناديه ، خاله

iLovePDF

صوت جوزيف ، التفت ظهريا فلم يرى شيئا ، انتقل ببصره في كل الجهات دون نتيجة ، ثم أعاد النظر إلى سفح المنحدر كرتين علّه يتأكد. إنه ذات الصوت للمرة الثانية .

بدأ اندريه يتجمد الدّم الذي في عروقه من شدة الرعب و الفزع ، للمرة الثالثة تواليا يسمع أندريه صوتا لكن هذه المرة لم يكن صوتا يناديه بل صوت رصاص ، انجلى أخيرا من بين غمائم ورذاذ الضباب شخص ملثم كليّة ، يضحك بأعلى صوته ، تسمّر أندريه في مكانه وصوته يكاد ينقطع و هو يترجى الملثم من يكون وماذا يريد منه ؟ .

رد الملثم :

_ آه. أيه الشرير أندريه ، لقد قتلت جوزيف دون رحمة ولا شفقة ، قتلته بسب طمعك وانانيتك ، والآن جاء دورك لتنال جزاءك ، ولن تتأخر صديقتك زفيتلانا الغبية باللّحاق بك ، صوب الملثم المسدس نحو أندريه و أطلق عليه عيارين فأرداه قتيلا ، انطلق بسرعة نحو الجثة ليسحبها إلى أسفل المنحدر ، ثمّ همّ بالفرار .

انتظرت زفيتلانا أندريه طويلا لكنه لم يعد البتة ، قامت مصالح الأمن إثر بلاغات أصدقائه ومرتادي محل الحلاق الذي يملكه بالبحث عنه في كل مكان، إلى أن تم العثور على جثته ميتا سفح منحدر غابة لاتوفا ، ولكن مقابل ذلك لم يعثروا على أي دليل مادي يثبت من الذي قام بقتله و رمي جثته .

انطوت ماريا و أصبحت حبيسة غرفتها أكثر بعد مقتل والدها نيكيتا ، لقد أضحت تعيش في وجع و تفكير دائم وبلا توقف ، تبحث عن الحقيقة كل الحقيقة ، ربما زادت أيضا في حيرة و حزن والدتها التي لا تترك الغرفة حتى تعود إليها

iLovePDF

مجددا ، تريد أن تشدّ من أزر ابنتها ، و آن الوقت تريد كذلك أن تفرغ ما في قلبها إلى أقرب إنسان لها .

توقف مجيء الناس تماما إلى البيت للقيام بواجب العزاء ، فزادت لواعج القلب تحركا و حزنا بعد أن أنساهم أولئك الناس في مصابهم الجلل بعض الوقت .

تنهدت ماريا ووضعت رأسها على صدر والدتها وهي تقول :

_أمي يكاد رأسي ينفجر ألما ؟

_أنا كذلك بنيتي ؟ ربما لم أهنأ بنومة هنيئة منذ تلك الحادثة المشينة ؟

_ولكن ما الذي حدث ؟ هل نحن في حلم أم علم ؟

_بل هي الحقيقة صغيرتي، مثلك أنت أريد أن يكون هذا الكابوس مناما فحسب ، أريد أن يخبرني أحد أن الذي حدث كله وهم ولا يمت للحقيقة بصلة ، ولكن ماذا نحن فاعلون يجب أن نواجه الواقع كما هو .

_ما يحيرني فعلا، سؤال واحد، من له مصلحة في فعل هذا العمل الشنيع، خاصة وأن والدي الرّاحل كان إنسانا رائعا مهادنا مع الجميع -رغم مساوئه معنا- يعمل بكد ونشاط ويساعد الجميع، ولا أعداء له مطلقاَ، هل قال لك يوما بأنه على عداء مع أحدهم.

_لا ، أبدا بنيتي ، أنت تعلمين أن والدك لم يكن كثير الكلام معي ، بل إنه كان يحكي معك أنت أكثر مني ، ويفضفض ويتكلم أكثر مع زفيتلانا ، هي تعلمه وتعرفه أكثر مني ومنك ، فهو لا يكاد يسكت إلا ويتكلم معها ، وربما لاحظت أن معظم أحاديثهم تكون في غرفته ، بحيث لا يسمع لهم أحد ولو كلمة ، أظن أنه إذا كانت لديه مشاكل أو خصومات أو نزاعات مع أي كان ربما حكاها لها .

iLovePDF

_مـا رأيـك أمـي أن نـتكلم مـع زفيتلانـا عنـدما تـأتِ إلـى البيـت، أنـت تعلمـين أنهـا كثيـرة الخـروج هـذه الأيـام، ربمـا إن سـألناها نجـد إجابـات وافيـة قـد توصـلنا إلـى الحقيقة.

_لا أظـن ذلـك صـغيرتي، أنـت تعلمـين أن زفيتلانـا تلتـزم الصّـمت إزاء أي سـؤال يوجـه لهـا ، إنهـا إنسـانة غريبـة الأطـوار ،تعاملنـا دائمـا وكأننـا غربـاء أو أعـداء ، ولكن لا ضير في أننا نجرب عسى أن نجد لديها قبولا وتقبلا لسؤالنا.

انتظـرت ماريـا ووالـدتها دخـول زفيتلانـا لسـؤالها ، ولكنهـا لـم تظهـر حتـى الغـد ، وحين ذلك اندفعت والدة ماريا حين دخولها البيت للسؤال عنها :

_كيـف حالـك بنيتـي ، خفنـا عليـك وأرسـلنا فـي البحـث عنـك ، لمـا لـم تظهـري إلـى الآن ، أرجوا أن يكون المانع خيرا؟

ردت زفيتلانا بعصبية :

_منـذ متـى صـرت تتلقفـين خطـاي، ومنـذ متـى صـرت تهتمـين بـي، أخبـرك بأنـك أنـت و ابنتـك المعتوهـة تتظـاهران بحبـي وبحـب والـدي، وأنـا أعلـم أن خبـر مقتلـه أفرحكمـا كثيرا، لذا لا داعي للتمثيل و الضحك على الذقون.

_ ولكن ماذا تقولين؟.

_ لا تتظـاهري بالصّـمم ، لقـد سـمعتِ مـاذا قلـت ، و أحـذرك مـن مغبـة التـدخل فـي أمـوري الشخصـية مجـددا، لا يهمـك بحـال مـن الأحـوال متـى أدخـل ، ومتـى أخـرج ، وإلى أين أذهب ؟ و لتفعلي ذلك مع ابنتك الوسيمة !!.

_ فهمتـك جيـدا زفيتلانـا ولكننـي كنـت أود سـؤالك عـن أمـر آخـر ، وعلـى كـل حـال لـم يكن أبدا هدفي التدخل فى حياتك الخاصة.

_ إذن ماذا تريدين ؟

iLovePDF

_ أنتِ أقرب الناس إلى والدك الرّاحل ، فهو يحبك ويحكي لك كل شيء ، نريد أن نعرف هل كان له أعداء ؟ ربما نصل إلى معرفة هوية الجاني ، أو ربما نساعدهم في إمداد المحققين بمعلومات قد تفيدهم في معرفة كافة الملابسات والحيثيات .

_ لن تجدي لدي ضالتك ، لو كنت أعلم ما كنت تأخرت ، فأمره يهمني أكثر منكما ، لا أعلم شيئا مطلقا ، وتأكدي بأن المحققين فعلوا المستحيل للوصول إلى ما تريدين ، ولكن لا شيء و لا دليل موجود ، أعلم أنك إنسانة متهورة ، توزعين وتكيلين الاتهامات بشكل جزافي ، لا يوجد شخص أحبه والدي أكثر مني ، وإن توصلت إلى قاتله سوف أشرحه بيدي دون رحمة أو شفقة .

انصرفت زفيتلانا إلى غرفتها ، تاركة ناتاليا في حيرة من أمرها ، إنها تستغرب و تستهجن كل ذلك الكّم من التصرفات اللامسؤولة من زفيتلانا ، وربما تلقي باللائمة على نيكيتا الذي أساء تربيتها وطلق العنان لمشاعر الحب والدلال تجاهها فاستحالت إلى فتاة لا تأبه لأحد ، وتفعل ما تريد .

كانت زفيتلانا تخطط لفعل شيء ما ، فهي قليلة المكوث في البيت ، شاردة التفكير ...تتكلم بصوت عالٍ صاخب كأنها مجنونة.

في أحد الأمسيات توجهت إلى مكتب محامي العائلة المستر جورجينو الشاب الأنيق ، الذي يبدو للوهلة الأولى أن لا شغل و لا مشغلة لديه .

طرقت زفيتلانا الباب ثم دخلت، بعد أن أذن لها بالدخول قائلا :

_ تفضلي آنسة زفيتلانا بالدخول .

_شكرا مستر جورجينيو ، إن كان لديك شغل سأعود إليك لاحقا .

_لا. لا ابداَ، عن أي شغل تتكلمين ؟ أنا وحيد طول الوقت ، لقد تراجع حجم العمل عندي بشكل لافت خلال الفترة الأخيرة ، واستغل ذلك الفراغ في القراءة و

iLovePDF

المطالعة ، وكذا في إثراء رصيدي و معرفة كل جديد في المجال الذي أعمل فيه ، أنت تعلمين أن مهنة المحاماة شاقة و تحتاج دائما إلى مكاسب علمية جديدة ، و الاستفادة من مرافعات الأخرين واستثمار كل ذلك في تحقيق النجاح ، وضمان مكاسب مالية أفضل .

_هذا جيد سيدي ، أحب كثيرا الأشخاص الذين يتبنون نفس أفكارك ولديهم أهداف واضحة المعالم في الحياة .

_هذا من أصلك الجميل وأنا ممتن وسعيد آنستي بمدحك لي ، ولكن أخبريني ، هل أستطيع تقديم أي خدمة لك ؟

صمت لحظة وواصل كلامه:

_ أنت تعلمين بأنني محامي العائلة وقد اسفني كثيرا موت السيد نيكيتا المفاجئ، إنه أمر محزن للغاية ويجعل القلب مكلوما ، لقد أتيت إلى بيتكم خلال العزاء وقد آلمني حقاَ ما رأيت ، لقد كان السيد نيكيتا حريصا خلال حياته على العمل بجد و توفير كل سبل الراحة و الرفاهية لعائلته .

_بكل تأكيد سيد جورجينيو ، ولكن ماذا نفعل ، لقد غُدر به و سرقوا منه حياته ، إننا حزينون عليه ، والعائلة تمر بوجع عميق ، ولكن قل لي هل أنت مرتاح في عملك هذا ؟

_لا أكذب عليك آنستي ، لو وجدت أفضل منه ، لما بقيت فيه دقيقة واحدة ، إن المال الذي أجنيه قليل جدا و لا يكاد يحقق لي جميع ما أريد ، أنا رجل طموح للغاية وأهدافي كثيرة ولكن تحقيقها مرهون بما أجنيه من المال ، ثم إني صرت لا أعمل إلا بالكاد ، لقد تراجع كما قلت لك عدد الزبائن كثيرا.

_ربما أستطيع مساعدتك، وتحقيق أحلامك إن أردت .

_ لم أفهم آنستي ، هلاّ تكلمت بصوت واضحٍ وعالٍ ؟

iLovePDF

_بكل تأكيد سيد جورجينيو ، اسمعني ، أنت محامي العائلة ولديك الوثائق جميعها و كذا المستندات التي تثبت ذلك ولديك كذلك كل أوراق وملفات العائلة .

_ نعم هذا صحيح ، ولكن لم أفهمك ؟

_بإجراء بسيط للغاية ستصبح صاحب رقم مالي فلكي ، فقط إن قبلت بعرضي .

_ نعم يطيب لي معرفة تفاصيل هذا العرض ؟

_أنت تعلم أن نيكيتا قد مات ، وأنه يملك عقّارات و أراضي و أموال أخرى و سيولة نقدية بالبنك .

_نعم بكل تأكيد، أعلم هذا الأمر.

_ جيد ، بتصرف بسيط منك ستنال حصة جيدة من هذه الثروة !!.

_ لم أفهم ماذا تقولين ؟.

_ عليك بإنجاز وثيقة تثبت من خلالها أن والدي نيكيتا قد كتب وصية بموجبها حوّل جميع ثروته بإسمي الشخصي .

انتفض المحامي في وجه زفيتلانا قائلا :

_هذا هراء ، آنسة زفيتلانا ، بل إجرام ، أتريدين أن يزجّ بي في السجن ، إذن ما فائدة المال الذي سأجنيه من هذه العملية البائسة .

_ ومن قال لك بأنك ستظل محاميا وبأنك ستدخل السجن ، هدئ من روعك سيدي ؟

_كيف أهدئ من روعي وأنت تستفزينني بكلام غير مسؤول، بل بكلام مرعب مريع .

_انظر سيد جورجينيو ، سأمنحك مبلغا نظير أتعابك، و سأعطيك مبلغا آخر لتعيش خارج البلد ، تلك الحياة التي تحلم بها ، ستفعل ما تريد ، صدقني لن تجد

iLovePDF

عرضا مثل هذا ، ولن تفعل ولن تحقق أي حلم إن استمريت في مكتبك التعيس هذا ، ولو اشتغلت طوال حياتك بدون توقف .

تنهد جورجينيو بعمق وجلس مكفهر الوجه عابس الملامح وهو يقول :

_لا. لا أستطيع هذه حماقة، أنت لا تقدرين الظروف ولا النتائج.

صمتت زفيتلانا لحظة من الزمن ، تمعن النّظر في وجه المحامي ، ثم أردفت تقول :

_أمنحك أسبوعا للتفكير بتمهل ، سأعود إليك ، وأنا مستعدة للتفاوض معك كما تحب .

انصرفت زفيتلانا من المكتب بعد أن ودّعت المستر جورجينيو وهي تسيل عرقا وتسترجع أنفاسها بعمق ، إنها تفكر بشيء ما ربما يفسد لها كل خططها و ينسفها فى اليّم الغائر نسفا .

لم تكد زفيتلانا توصد الباب حتى قام المحامي جورجينيو من مكانه وطار فرحا ، إنه لا يكاد يصدق كيف أن فرصة مثل هذه أتته سعيا ، ربما لم يكن لديه سقف من الأحلام يصل إلى هذا الحد ، يكاد يجن أو يغمى عليه من شدة الغبطة التي يشعر بها والتي لم يشعر بها من قبل طوال حياته ، إنه ليس بحلم بل هي حقيقة .

إنه يريد أن يناديها الآن من نافذة المكتب حتى لا يضيع الفرصة الحلم ، لكنه وفي لحظة شعور كتم تلك المشاعر التي قد تفسد العملية برمتها ، إنه يحثُّ نفسه على السكينة و الهدوء و التفكير العميق حتى تسير الأمور على النحو الذي يريد .

رجع إلى مكانه وجلس، وهو يفكر بصوت عالٍ:

_لقد ساقت لي الحياة فرصة لن أضيعها ، سأحقق كل أحلامي و أكثر وبطريقة قانونية لا لبس فيها ، أدخل يده في درج المكتب وتناول ورقة و أخذ يتمّعن فيها ويقول :

iLovePDF

_هذه الورقة تساوي ذهبا !!

ربما لم يخطئ جورجينيو عندما قال ذلك ، كانت هذه الوثيقة عبارة عن تنازل قدّمه نيكيتا قبل وقت سابق وبموجبه منح كل ثروته لزفيتلانا بإقرار منه وبإمضائه الشخصي ، لكن لم يخبر أحد بذلك ، كما أنه لم يكن يعلم بوفاته ، وربما لم يكن ليضيّع ترتيبات أخرى بهذا الشأن ، لقد مات آخذا معه سرّ هذا التنازل الغريب .

أراد جورجينيو اللّعب على وترين ، أن يأخذ المال من زفيتلانا نظير هذه الورقة القانونية و التجرد من أي متابعة قد تنجر لو لم تكن الورقة معه، ثم فتح باب المساومات أمام زفيتلانا للاستفادة من مزايا أخرى ، وقد أسدى لها معروفا يكتب بماء من درر.

انقضت مهلة الأسبوع التي منحتها زفيتلانا للمحامي ، وحلّت بمكتبه في اليوم الموعود ، بعد أن مرت أيام عاصفة مخافة أن يفعل ضدها أمرا ما .

دخلت المكتب ، فوجدته في استقبالها ، لقد كانت تعابير ورسم وجهه توحيان بأن شيئا جيدا ينتظرها ، بادرها جورجينيو بالكلام :

_أهلا وسهلا آنسة زفيتلانا ، كنت بانتظارك ؟

_شكرا لك مستر جورجينيو ، هل أنت مشغول أم متفرغ حتى نخوض في القضية ؟ لا أعلم إن كنت فكرت في عرضي أم لا ؟

_بكل تأكيد آنستي ، لا أخفيك سراَ ، لقد فكّرت في الأمر بشكل هستيري ، أولا لأن عرضك مغرٍ لا يقاوم ، وثانيا يبدو أن الأمر تعتريه بعضاَ من الإشكالات القانونية...

قاطعته زفيتلانا مسرعة متلهفة :

_ أنا لا أفهم في تلك الإشكالات، أنا لست ضليعة في هذا المجال ؟

iLovePDF

_لا تقلقي آنستي ، لقد قمت بما يجب فعله، لقد أخذ مني هذا الموضوع وقتا طويلا ، لم أنم طوال الفترة السابقة ، كي أصل إلى أمر يرضيك ويرضيني.

_آه ، أعذرني سيد جورجينيو ، ربما أزعجتك ولكن أرجوا أن تكون قد وصلت إلى نتيجة تفيدنا نحن الاثنين .

_طبعا، طبعا ، لقد وافقت على عرضك ولكن بشرط ؟

_بكل سرور ، سيد جورجينيو أنا تحت إمرتك ورهن إشارتك ؟

_لقد أحصيت كل أملاك السيد نيكيتا ، و أريد أن أستفيد من نسبة تساوي أو تتجاوز العشرين من المائة منها ؟

لم تتمهل كثيرا زفيتلانا بالتفكير وردت عليه :

_لا ضير في ذلك ، لك ما تريد بكل سرور ، ولكن أريد التأكد من الوثيقة التي أنجزتها حتى يطمئن قلبي و نباشر في الإجراءات .

تناول جورجينيو الورقة من مكتبه ومنحها لزفيتلانا ، ربما لم تقرأها جيدا من قوة دهشتها و فرحتها ، سوى أنها ركزت على إمضاء نيكيتا وهي تقول :

_أنت بارع في التزوير، وكأنه هو من أمضاها بيده .

_نعم بكل تأكيد عزيزتي ، لم يكن الأمر سهلا ، و الأصعب هو كيفية الدفع بها لدى القاضي ولكن لا عليك أنا من أكمل المهمة ، ولن أطلب منك الكثير سوى نسبة مقدارها عشرة من المائة أخرى نظير أتعابي ، طبعا في حال تم فتح تحقيق أو وجود اعتراض من أحد أصحاب المصلحة .

_ممتنة لك كثير سيد جورجينيو، لقد قمت بعمل رائع لن أنساه لك ما حييت ، ستنال حصتك بكل تأكيد حسب الوعد الذي قطعته لك وحسب النسبة والحصة التي اتفقنا عليها ، ولكن عليك التزام الصمت المطبق مهما كان الظرف ؟

iLovePDF

_لا تـوصِ حريصـا ، فأنـا كـذلك مـن مصـلحتي أن يبقـى الأمـر طـيّ الكتمـان و السرية ، ولكن هناك أمر لابد من المرور عليه حتى تسهل لك باقي الإجراءات..

_ما الخطب ، هل يوجد مطبٌ أو مشكل أخر ؟

_لا ، إنـه تصـرف بسـيط ، سـأقوم بزيـارة بيـت العائلـة ، لِأوضـح لهـم القضـية ، فأنـا محـامي العائلـة بالنهايـة ، وبالتـالي فمـن الناحيـة القانونيـة وجـب علـي إخطـارهم بـأن السـيد نيكيتـا قـد تـرك وصـية علـى شـكل تنـازل عـن كـل أملاكـه للآنسـة زفيتلانـا ، بالـدليل المـادي حتـى يكونـوا علـى علـم ببـاقي الإجـراءات التـي قـد تصـل إلـى حـد إشـعارهم بـإخلاء المنـزل ، وكـل الممتلكـات الأخـرى إذا كانـت لـديك رغبـة فـي ذلـك طبعا .

_نعـم، أنـا أريـد فعـل ذلـك ، لأننـي أريـد كـل التركـة سـيولة وليسـت عقـارات أو منقولات مهما كان نوعها أو قيمتها فلا حاجة لي بها .

_كما تريدين آنسة زفيتلانا ، أنا طوع إشارتك في آية لحظة ترغبين .

لقـد كانـت زفيتلانـا تريـد مـن وراء صـنيعها ذلـك أن تحصـل المـال ، وتفـر إلـى وجهـة أخرى ، كي لا تنكشف اللعبة التي حبكت خيوطها مع محامي العائلة .

مـرت أيـام وزار جورجينيـو بيـت عائلـة نيكيتـا ، حيـث لقـي ترحابـا كبيـر مـن كـل أفرادهـا ، لـم يكـن مجيئـه مـن دون سـابق إشـعار ، لقـد أخبـر مسـتر بيترسـون كبيـر الخدم عبر الهاتف بقدومه قبل ذلك بيومين .

دخـل مسـتر جورجينيـو باحـة المنـزل ووجـد فـي اسـتقباله والـدة ماريـا فحيّتـه ودعته إلى الدخول إلى حيث غرفة الضيوف الفخمة وهي تقول :

_أهلا بك سيد جورجينيو ، أنا جد مسرورة بزيارتك لنا ، تفضل بالدخول .

_شـكرا لـك سـيدتي ، هـذا لطـف منـك ، أنـا كمحـامٍ للعائلـة ، لطالمـا اعتبـرت نفسـي واحداً منكم فأنا لا أحتاج إلى كل هذا اللطف في الاستقبال .

iLovePDF

جلس المحامي بعد أن نزع معطفه الغليظ وهو يقول:

_الجو دافئ في الداخل ، ينسيك برودة الطقس خارجا ، ودفئ الاستقبال يزيد الإنسان إحساسا بالدفء.

نزلت في تلك اللحظة ماريا حيث لقيت مستر جورجينيو يتجاذب أطراف الحديث مع والدتها ، لقد اختلجتها مشاعر عدة بها تناقضات جمّة ، ربما الوضع العام بعد وفاة والدها يسيطر عليها، وهي تدرك تمام الإدراك أن مجيء محامي العائلة ليس عرضيا ، بل لغرض ما ، إنها خائفة ولكنها لا تردي لما كل هذا الخوف ، أكملت خطاها حيث يجلس الضيف مع والدته ، ثم قامت بالترحيب به بحرارة .

التفت المحامي نحو ماريا ، قائلا:

_هلاّ ناديت لزفيتلانا ، إن كانت موجودة ، أنا أحتاجكم جميعا ، لقد جئت لأمر يهم جميع أفراد عائلة السيد نيكيتا .

ردت ماريا :

_نعم، إنها هنا، هي الآن بغرفتها سأصعد لِأناديها.

نزلت زفيتلانا وهي تتظاهر بعدم علمها بمجيء جورجينو ، حيث سلمت عليه بحرارة وبلطف زائد ثم جلست بثقة والسعادة لا تفارق محياها .

تناول المحامي الكلمة قائلا :

_يسعدني أن أجتمع إليكم سيداتي الكريمات عضوات عائلة الراحل نيكيتا ، لأخبركم بأمر وجب عليّ اطلاعكم عليه، تنهد و ارتشف قليلا من القهوة الساخنة ثم أردف بقول :

_ أنتم تعلمون أن الراحل قد ترك عديد العقارات والأملاك الأخرى وكذا سيولة مالية بالبنك ، ووجب إيصال الحق لأصحابه والقيام بمختلف الإجراءات القانونية و

iLovePDF

الإداريـة مـن أجـل ذلـك ، ولكـن رأيـت أنـه مـن الواجـب قبـل ذلـك إخبـاركم بـأن السـيد نيكيتا قد كتب هذه الوصية في شكل تنازل عن كل أملاكه لصالح الآنسة زفيتلانا !

تسمّرت ماريا و والدتها من هول ما سمعتا، إنه جنون وأمر لا يصدق.

ردت والدة ماريا :

_ماذا تقول مستر جورجينيو ، هل أنت متأكد .

_نعم ، بكل تأكيد سيدتي ، هذه الورقة تثبت لك صحة كلامي .

ناولها ورقة التنازل وعليها إمضاءه و إمضاء زوجها الراحل .

قرأت ناتاليا الورقة وهي مذهولة ، ثم انطلقت تتكلم بكلام ممزوج بالبكاء :

_ولكـن مسـتر جورجينيـو ، لـم يخبرنـي زوجـي – حـال حياتـه – بشـيء مـن هـذا ، أكاد لا أصدق ؟

_ سـيدتي أنـا لا أتـدخل بحـال مـن الأحـوال فـي الأمـور الشخصـية ، أنـا كمحـام أطبـق كـل مـا يملـي علـي مـن طـرف أصـحاب المصـلحة وهـم يتصـرفون بنـاء علـى إرادتهـم و رغبـتهم ، ولـذا لا أسـتطيع أن اعلـم كيـف ولمـاذا فعـل هـذا الأمـر السـيد نيكيتـا ، هـو الوحيـد القـادر علـى الإجابـة ، علـى كـل حـال أنـا فـي خـدمتكم فـي أي أمـر تودون معرفته أو أي ئ بإمكاني فعله من أجلكم .

غـادر المحـامي بيـت العائلـة تاركـا ماريـا و والـدتها فـي حـال سـيء للغايـة ، و الفرحة لا تكاد تختف من وجه زفيتلانا .

لـم يكـن صـعبا علـى زفيتلانـا الكـلام مـع ماريـا بصـفة سـيئة وبقلـب دون رحمـة وهـي تقول :

_حسـنا ، أمهلـك أنـت و والـدتك ثلاثـة أيـام لمغـادرة البيـت ، أنـا أود بيعـه ، عليكمـا إيجاد مأوى للعيش فيه !

iLovePDF

_أنتِ لا تمتين للإنسانية بصفة، كيف يطاوعك قلبك طرد أختك و زوجة والدك دون رحمة أو شفقة.

ضحكت زفيتلانا بقوة حتى أبانت عن نواجذها وهي تقول :

_أنت غبية ، من قال لك بأنك أختي ؟؟ أنت لست أختي أيتها المغفلة ؟؟ ستعرفين أشياء صادمة ولست مضطرة لأن أتكلم معك الآن في كل شيء ، هيا ابحثي أنت و أمك من الآن عن مأوىَ ، أنا أخاف عليكما من برد الشتاء؟

تكلّمت زفيتلانا بلغة ساخرة وبضحكات ملؤها التهكّم والازدراء.

ثم انصرفت مختالة فخورة وهي تتمايل من فرط الضحك والاستعلاء، تاركة ماريا و والدتها في حالة حيرة و استغراب و حزن من كل الذي يحدث ، أنه أمر جلل لا يصدق ، ربما تريد ماريا أن يخبرها أحد بأن هذا الأمر كابوس أحلام وليس بواقع ، تتزاحم في مخيلتها هي ووالدتها الكثير من مشاعر الألم و الحزن وكذا مشاعر الرّغبة في رد الاعتبار للذات ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ و إلى أين الملاذ قبل ذلك ؟.

انطلقت ماريا ووالدتها في البحث عن مكان للعيش فيه ، وآن الوقت في تفعيل أي إجراء يصون لهما كرامتهما و يسترجعا من خلاله حق ربما يكون ، إنهما على أي حال تشكان في كون زفيتلانا قد زورت الوثيقة الخاصة بالتنازل فهما تشكان في أن نيكيتا يكون قد أقدم على فعل أمر شنيع مثل هذا، كيف و ما المبررات ؟

كان عليهما الذهاب مجددا إلى مكتب المستر جورجينيو بما أنه محامي العائلة و أنه من الواجب استشارته وأخذ رأيه حول المسألة وكذلك التأكد من سلامة الوثيقة المقدمة والتي دفعت بها زفيتلانا مجددا .

iLovePDF

دخلت الأم و ابنتها إلى المكتب فوجدتا ترحابا منقطع النظير من جورجينيو ، ترجاهما بالجلوس و طرح أي سؤال يخطر ببالهما بقوله :

_أنا في خدمتكما ، وسأعمل على مساعدتكما بكل سرور .

شكرت والدة ماريا السيد جورجينيو على لباقته ، وحسن تصرفه في استضافتهما ولكنه وبعد حوار طويل ومستفيض معهما ، لم يقدم لهما أية إجابة شافية كافية وافية ، بل إنه التزم الصمت المطبق ، حيث أنه لم يقل الحقيقة إزاء وثيقة التنازل واحتفظ لنفسه بالسر و بالصفقة الكبيرة التي سيجني منها أرباحا لم يعد لها العدة ولم تخطر بباله قط .

انصرفت ماريا ووالدتها من المكتب حسرةَ، بيد أن ماريا بادرت أمها بالقول:

_والآن إلى أين المسير أمي ، يبدو أننا في الساعات الأخيرة داخل بيتنا الذي كبرنا و ترعرعنا فيه .

_لا تقلقي بنيتي ، سنقوم برفع دعوى قضائية ضد زفيتلانا ، أنا أشك في كون والدك قد منح كل أملاكه لها ، أو ربما حدث تزوير في الوثيقة التي قدمها المحامي جورجينيو ، لست متأكدة ولكن هي حالة ريب تنتابني بقوة .

_لا أظن أننا سنحصل على نتيجة تذكر، ولكن ربما علينا أن نجرب.

_سنفعل بكل تأكيد، ولكن وددت صغيرتي أن أخبرك أننا في غضون ذلك سنحزم أمتعتنا و نرحل من بيتنا.

_ولكن ما الذي تقولينه أمي، نرحل ! إلى أين نرحل أظن أن الأمر بات صعبا ، أين سنجد مأوى لنا ، ماذا نملك حتى نرحل؟

_لا عليك ، ربما لم أخبرك آننا أو لم تتح لي فرصة الكلام من قبل ، لقد ترك لنا والدك بيتا ريفيا مع مزرعة خارج المدينة ، لدي وثائق ثبوتية بذلك ، لا مجال لزفيتلانا ولا لغيرها في أي تضع يدها أو تطالب بشيء من ذلك ، لقد كانت هدية

iLovePDF

مـن والـدك لـي عنـد زواجنـا ، وحـان الآن الوقـت للعـيش هنـاك ريثمـا تظهـر نتـائج التحقيقـات والـدعوى التـي سـنقوم برفعهـا ، ثـم نـرى بنـاء علـى ذلـك أن نعـود أو نسـتقر هنالك.

_ولكـن لمـا لـم تخبرنـي مـن قبـل ، صـدقيني فقـدت الأمـل منـذ أن أخبرنـا المسـتر جورجينيو بذلك الخبر .

_أنـا أيضـا بنيتـي عشـت كابوسـا ولـم تفـارق المواجـع مخيلتـي ، ولكـن علينـا أن نسـتعد الآن، تصـوري لـو لـم يكـن لـدينا شـيء يـذكر ، أعلـم أن المكـان بعيـد عـن المدينـة ولكـن سـنتعود حتمـا ، كمـا أن المواصـلات متـوفرة علـى نحـو جيـد ، فالمدينـة بهـذا الشكل ستكون قريبة حتما .

انطلقـت ماريـا ووالـدتها نحـو البيـت لحـزم الأمتعـة و الاسـتعداد للرحيـل نحـو البيـت الجديـد فـي الريـف ،ووالـدة ماريـا تنبـه ابنتهـا علـى عـدم البـوح بمكـان مسـتقرهما لا لزفيتلانـا ولا لكـائن مـن كـان ، درءَ لكـل إزعـاج أو أي نـوع مـن القلاقـل والمشـاكل التي قد تثار.

أُتمّـت إجـراءات الرحيـل ونـادت والـدة ماريـا لبيتـر الـذي يعمـل بالمزرعـة و يمتلـك حصـانا بعـربيتين لنقـل الأمتعـة إلـى بيتـه البعيـد عـن المزرعـة وعـن البيـت الجديـد علـى ثلاثـة دفعـات لتشـتيت أذهـان الخـدم و زفيتلانـا ، ومـن ثمـة نقلهـا مجـددا إلـى المسكن الجديد.

لـم يكـن سـهلا البتـة علـى الوافـدتين الجديـدتين العـيش فـي هـذا المكـان البعيـد عـن المدينـة حيـث حيـاة بـنمط جديـد و بأسـلوب جديـد ، ربمـا أكثـر الأمـور صـعوبة ،البرودة الرهيبة حيث لا شيء هنا سوى الحطب و المازوت .

iLovePDF

أرادت ناتاليا والدة ماريا أن تسابق الزمن، بأن ترفع دعوى قضائية ضد زفيتلانا ، ولهذا قصدت المحامي ريتشاردسون الذي كان يدرُس معها ، حيث يعتبر من أحنك وأفضل المحامين في المنطقة :

_أهلا سيد ريتشاردسون، كيف حالك ، أظن أنك تتذكرني ؟

_وهل يخفى القمر، أهلا بك سيدة ناتاليا ، لا أظن أن إنسانة في مقامك و مستواك تُنسى هكذا بسهولة ، لقد كنت من المتميزات في الفصل ، وكان كل الأساتذة يثنون عليك ، ولكن أخبريني كيف حالك ؟ ولما كل هذا الغياب ؟

_في الحقيقة ، أنت تعلم أنني كنت متزوجة بالسيد نيكيتا تاجر السلاح ، والذي مات مقتولا في حادثة غريبة داخل محله .

_يؤسفني سيدة ناتاليا أن أسمع منك خبرا مثل هذا ، لقد كان السيد نيكيتا من أثرياء المدينة ، و صديقا قديما لكن الظروف جعلتنا نبتعد عن بعض ، أنت تعلمين كيف أن الحياة و الظروف أصبحت تتحكمان في الإنسان وبشدة .

_فعلا ، سيدي .

_هل لي بمعرفة سبب تشريفك لي بزيارة مثل هاته ، على كل حال أنا في خدمتك.

_بلى ، في الحقيقة قصدتك سيد ريتشاردسون في مسألة حيرتني كثيرا ، لا أعلم إن كنت تستطيع فك شفرتها .

_لا أعدك بشيء سيدتي، ولكنني أسمع منك ثم أخبرك إن كان الأمر يسيرا أم لا ، لكنني أعدك مقابل ذلك ببذل غاية جهدي.

_بعد موت نيكيتا، قصدنا محامي العائلة السيد جورجينيو ، ومعه خبر ووثيقة ، لقد أخبرنا بأن نيكيتا ترك تنازلا في شكل وصية بموجبها ترك جميع ممتلكاته المنقولة و العقارية لزفيتلانا ابنته من زوجته الأولى ،ثم قدم لنا بيانا بذلك عبارة

iLovePDF

عن وثيقة تنازل بها إمضاءه و إمضاء السيد المحامي ، بهذا الفحوى و المضمون .

_ولكن أين المشكلة سيدتي ؟

_المشكل يكمن في كوني أشك في إمضاءه، قد يكون مزورا ، ربما أنا اشك في كون اتفاق ما، قد حصل بينهما.

_من تقصدين سيدة ناتاليا ؟

_أقصد المحامي السيد جورجينيو و الآنسة زفيتلانا ، ربما يكونان قد قاما بإبرام صفقة بحيث تستفيد هي من جميع أملاك الراحل ، ويستفيد هو من مقابل ذلك .

_لا أظن ذلك سيدة ناتاليا ، ليس سهلا أن تبرم مثل هكذا اتفاقات ، فالمحامي مهما كانت أطماعه لا يزج بنفسه و مركزه وسمعته في أمور مثل هذه ، كما أنك تعلمين أن العقوبات المنجرة قاسية جدا في حال حدوثها.

_ولكن لماذا لم يخبرني نيكيتا حال حياته بهذا الأمر ، ولماذا كل هذا الغدق على زفيتلانا من دوننا نحن ؟

_هذا هو السؤال المفصلي والذي يجب طرحه وتجب الإجابة عليه ، وهو في نهاية المطاف أمر شخصي لا أستطيع الإجابة عنه ، ولا حتى التدخل فيه.

_إذن ما الذي يجب فعله، لأعرف الحقيقة ؟ هل تقترح علي مثلا رفع دعوى قضائية ضد الآنسة زفيتلانا ؟ أم ضد السيد جورجينيو ؟ أم ماذا ؟.

_أنا أقترح عليك التزام الصمت ، لأني بصراحة لا أظن أن محامٍ يمثل القانون في المجتمع يقدم على مثل هكذا تصرف ، ولكن ليطمئن قلبك أظن عليك الدفع بالتماس الطعن في هذه الوثيقة ، لكون نيكيتا قد أمضاها وهو في حالة قصور صحي عقلي آنذاك .

iLovePDF

_ولكن سيدي ، ما الذي يثبت لي؟ وما القرائن الدالة على صحة هذا الدفع ؟

_أنا من سأتكفل بالقضية إن شئتِ ، لكن من أجل ذلك عليك أن تتركي لي أي مستند أو شيء يساعدني ، لكن في كل الأحوال سأفعل كل ما لدي للوصول إلى الحقيقة المنشودة .

_أشكرك بكل امتنان سيد ريتشاردسون على سعة صدرك وتفهمك لي ، فقط أرجوا منك أن يبقى الأمر سرا بيننا.

_لا عليك سيدتي ، بكل تأكيد سيبقى الأمر كذلك.

قامت الإجراءات بسرعة حسب رغبة السيدة ناتاليا، وفي يوم المحاكمة تمت المناداة على جميع الأطراف أصحاب المصلحة وكل من لهم صلة بالموضوع سواء شهود أو غيرهم ، لقد قام قبلها المحامي ريتشاردسون بإنجاز وثيقة صادرة من طبيب محلف تثبت أن السيد نيكيتا كان إبان حقبة زمنية مصاب باعتلال عقلي لا يسمح له بالتمييز ما بين الأشياء، وأنه بناء على ذلك قد أصاب نفسه ومصالحه الشخصية والعائلية بالضرر.

استمع القاضي إلى الشهود الذين كانوا على علاقة بنيكيتا ، ثم استمع إلى الطبيب المحلف ، لكن بعد المداولات ، صدر الحكم في منطوقه أن الوثيقة الخاصة بالتنازل صحيحة شكلا و مضمونا، بعد الاستعانة بخبرة الخبير في المضاهاة بالخطوط ، وأن تقرير الطبيب المحلف لا يستند إلى الحقيقة الكاملة كون نيكيتا ربما كان يمر بأزمات عقلية أو بغياب عن الوعي ناتج عن الإسراف في تناول الكحول وليس عن أزمة عقلية فعلية .

ورغم محاولات المحامي ريتشاردسون الدفع ببطلان العمل بهذه الوثيقة وبكون تقرير الطبيب الشرعي صحيح لاريب فيه ، الا أن النتيجة حسمت بعدم تغييرها ، وبقيت دار لقمان على حالها .

iLovePDF

أبلـغ السـيد ريتشاردسـون السـيدة ناتاليـا بكـل حيثيـات ومضـامين مـا جـاء فـي الجلسة بالقول :

_لقـد تيقنـا سـيدتي أن الوثيقـة الخاصـة بالتنـازل صـحيحة لاشـك فيهـا ، واسـتعمال الخبـرة أثبتـت ذلـك ، إذن لا يوجـد تزويـر البتـة ، والنتيجـة أن نيكيتـا أمضـى الوثيقـة في كامل قواه العقلية و النفسية و الجسدية.

_ولكن هذا هراء سيدي، لا أصدق أبدا أن مثل هذا الأمر حصل.

_إن أردت الاسـتمرار برفـع القضـية إلـى محكمـة الاسـتئناف والـدفع بعـدم قبـول الحكم الصادر بإضافة أدلة جديدة ، أنا هنا لخدمتك.

_لا، سـيدي، سـأكتفي بهـذه الـدعوى، لا أريـد خسـارة مزيـد مـن المـال، أريـد أن ارتـاح الآن لقـد سـلمت أمـري إلـى السّـماء؟ ، أشـكرك شـكرا وافـراَ علـى وقوفـك معـي حتى التأكد من شيء كنت أود قطعه باليقين.

_على الرحب و السعة، أنا في خدمتك سيدتي .

اعتبـرت زفيتلانـا الـدعوى التـي رُفعـت بشـأن القضـية بمثابـة دق لطبـول الحـرب ضـدها وضـد المكاسـب التـي جنتهـا ، وهـي التـي لازالـت تتـوجس خيفـة مـن أي ريـب قـد يسـاور أي أحـد مـن أصـحاب المصـلحة فيهـا ، خاصـة وأنهـا تعتقـد بـل تصـدق بـأن المحـامي جورجينيـو قـد زوّر فعـلا إمضـاء نيكيتـا بنـاءَ علـى طلبهـا وتنفيـذاَ لأجنـدة أطماعهـا ، بيـد أنهـا فـي آن الوقـت تعتبـر سـقوط الـدعوى المرفوعـة والنطـق لصـالحها انتصـارا بـاهرا لهـا ، إنهـا الآن تسـعى لـربح الوقـت والاسـتفادة مـن المـال الـذي سـتجنيه مقابـل بيعهـا لتلـك الممتلكـات ، ثـم إنهـا لا تريـد إلحـاق الضـرر بماريـا ووالـدتها لدرء أي شك قد يحوم حولها وخاصة أنهما من أعضاء العائلة .

وفعـلا ، قامـت بتنفيـذ هـدفها ، لكـن دون الوفـاء لجورجينيـو بكافـة مسـتحقات العملية ، وبعد أن فعلت توجهت إلى وجهة غير معلومة .

iLovePDF

لـم يكـن يعلـم جورجينيـو أن زبونتـه سـتفعل بـه كـل هـذا الأمـر ، خاصـة بعـدما تعهـدت لـه وبعـد أن منحتـه مبلغـا كـان هـدفها منـه ربـح الوقـت و تخفيـف غضـبه ، إنـه لا يعلـم مـاذا يفعـل لاسـترداد الشـيء الـذي ضـاع وسـلب منـه ، حتـى الإمضـاء الخـاص بنيكيتـا صـحيح مائـة بالمائـة ولا يمكـن الـدفع بـذلك ، ربمـا هـي نتيجـة للطمـع الزائـد لهـذا المحـامي الشـاب الـذي قـد يدفعـه هـذا الصـنيع الموجـع للثـأر منهـا ، خاصـة بعـدما بنـي قصـورا مـن الأحـلام مـن خـلال تلـك المبـالغ التـي كـان سيقبضـها مقابـل خدمتـه أو بالأحرى كذبه عليها .

مـرت الأيـام ثقيلـة وجيعـة علـى ناتاليـا و ابنتهـا ماريـا ، لقـد أصـبحتا تعيشـان فـي مكـان بـائس بعيـد عـن الأُنسـة و اللّمـة ووهـج الـدّنيا وزينتهـا ، مكـان بـارد فظيـع ،بمنـأى عـن تلـك الحيـاة الجميلـة الحالمـة التـي كانتـا تعيشـانها فـي بيـت نيكيتـا البـديع ، إنهمـا تسـمعان كـل لحظـة ، أصـوات الكـلاب الضـالة والـذئاب الهائمـة ، وكـل الهـوام التي تضفي على المكان المهجور مزيدا من الرُّعب والخوف .

iLovePDF

4. روبیرتـــــــو و موکاردا.

iLovePDF

لـم تكـن تتوقـع ناتاليـا البتـة زيـارة أحـدهم ذات يـوم روتينـي بـارد للغايـة ، كانـت السـاعة تشـير إلـى العاشـرة صـباحا ، عنـدما سـمعت طرقـا خفيفـا علـى البـاب وهـو أمـر ربمـا بعـث قلـيلا مـن الراحـة فـي قلبهـا ، ذهبـت لإيقـاظ ماريـا لإخبارهـا والاسـتئناس بهـا ، ومـن ثـمّ الـذهاب مجـددا إلـى البـاب ، لـم تكـن ماريـا تحبـذ فـتح البـاب لخوفهـا مـن زيـارة أحـدهم مهمـا كـان ، خاصـة فـي مكـان مهجـور مثـل هـذا ، لكـن الطـارق علـى مـا يبدو مصر البقاء حتى فتح الباب ، توجهت ناتاليا بسؤالها للطارق :

_ من بالباب ؟

_ إفتحي الباب أمي أنا روبيرتو .

قامـت ناتاليـا بفـتح البـاب بسـرعة البـرق ، إنـه ابنهـا المهـاجر قـد حـل ، لـم تكـن الفرحة لتسع قلبها بعد كل هذه المدة من الغياب ، احتضنته وهي تقول :

_كيف حالك بني ؟ أرجوا أن تكون بخير ؟

_لقد اشتقت إليكم كثيرا، أنا بخير وأنتم كيف حالكم ؟

_كلنا بخير .

توجـه روبيرتـو نحـو أختـه لإلقـاء التحيـة الحـارة عليهـا ، ثـم جلـس الجميـع علـى طاولـة الشـاي ، لـم يكـن يعلـم أحـد بمجـيء الابـن فـي هـذا الظـرف وإلـى هـذا المكـان البعيد المنقطع عن المدينة ،سألت الوالدة ابنها :

_لما كل هذا الغياب بني ؟

_أنـت تعلمـين أمـي أنـي لسـت مـن الأشـخاص الـذي يغيبـون دون مبـرر أو مسـوغ ، صـدقيني إن ظـروف العمـل صـعبة للغايـة ولا أكـاد أرفـع رأسـي مـن قـوة العمـل وضـغط الشـغل ، ولا أسـتطيع أن أثـق فـي النـاس مهمـا كـان الحـال ، لأن شـغلي مـرتبط بوجودي .

_وكيف عرفت بوجودنا في هذا المكان ؟

iLovePDF

_لـيس الامـر فـي غايـة الصـعوبة ، لقـد توجهـت إلـى منـزل العائلـة ، فلـم أجـد أحـدا هنـاك ، سـألت الجيـران فـأخبروني بعـدم علمهـم بوجهـة أفـراد الأسـرة ، مـا اضـطرني إلـى السـؤال عـنكم لـدى أحـد عمـال المزرعـة حيـث دلنـي مباشـرة ، فـي الحقيقـة لقـد شككت في وجودكما هنا مباشرة ولكن أردت التأكد.

_ إذن أنت تعلم لماذا نحن هنا ؟

_نعـم أمـي ، لقـد عرفـت بـأن السـيد نيكيتـا قـد تمـت تصـفيته داخـل محلـه مـن طـرف مجهـول ، وبأنـه أوصـى بجميـع ممتلكاتـه لزفيتلانـا ، ولكـن الـذي أود معرفتـه هـو لمـا فعـل هـذا الأمـر ألا يـدرك بأنـه قـد أخطـأ خطـأ جسـيما بفعلتـه هـذه ، مـاذا عـن زوجتـه وابنته ؟ لماذا لم يحسب لهم حساب ؟

_لا ، مطلقـا ، لقـد رفعـت دعـوى بإبطـال هـذا التصـرف ، لكـن بـاءت بالفشـل وصـدرا الحكـم باسـتمرار الوضـع وانتفـاء أي وجـه مـن أوجـه الـبطلان ، والآن استسلمت للوضع وعدت إلى بيت المزرعة ولا أعلم ماذا سأفعل في قابل الأيام؟

_ولكـن، ألا تعلمـين أمـي بـأن العـيش فـي مثـل هـذا المكـان هـو خطـر محـدق كبيـر على حياتكما، أنت تعلمين بأنه مكان محفوف بالمخاطر ومنقطع تماما عن البشر.

_ مـاذا أفعـل بنـي، ربمـا نتعـود علـى الوضـع المسـتجد ، لكـن الأمـر لـيس بكـل التهويـل الـذي تظنـه ، المهـم لا تشـغل بالـك بوضـعنا ، أن أراك بخيـر وعافيـة فهـذا هـو المراد الذي أتمنى.

_لـديّ فكـرة رائعـة ، لمـاذا لا تـذهبان معـي إلـى حيـث أعمـل ، لـن تحتاجـا إلـى أي شـيء ، هنـاك الحيـاة رائعـة و الجـو لطيـف والنـاس رائعـون ، كمـا أننـي فـي حالـة مادية جد ميسورة، ستعيشان ملكتان لاريب.

_ولكـن روبيرتـو ، أنـت تعلـم بأننـا لا نسـتطيع تـرك هـذا البلـد الـذي كبرنـا وعشـنا فيـه ، ثـم إن أختـك ماريـا سـتكمل دراسـة الطـب هـذا العـام ولـم يبقـى لهـا سـوى أشـهر

iLovePDF

ثلاثة ، تريد أن تكون طبيبة ، وهذا أمر غير متاح هنا في ما أعتقد ، هي تريد العمل بشكل مستقل، أظن بأنها لا نستطيع فتح عيادة مستقلة بناءَ على الأوضاع التي نعيشها ، ولكن ربما فرصة العمل في أحد المستشفيات الحكومية سيكون أيسر لها على كل حال ؟

_ قلت لك أمي بأن الأمور المالية أمر لا يقلقني البتة ، سأفتح لها عيادة خاصة باسمها الشخصي يكون اسما تجاريا لها أيضا ، ثم أنكما ستعيشان في بيت فاخر بخدمه وحشمه ، لن تكونا بحاجة لأحد وستكونين في مأمن صدقيني ، أنا الآن أحتاج موافقتك و موافقة ماريا كي أبدا الإجراءات رأسا ، سأستغل هذه العطلة البسيطة للجلوس معكما و منحكما وقتاَ للتريث ثم إعطائي قراركما ، ولكن ثقا بأنني سأكون سعيدا جدا لو قبلتما العرض .

_حاضر بني، امنحني يوما للتفكير و سأجيبك بعد ذلك ؟

_الى ذلك أنا بحاجة إلى وجبة نوم ، بعدها استحم وانزل إلى المزرعة ، ثم إلى المدينة لقد اشتقت إليها كثيراً.

_افعل ما تريد عزيزي، سأحضر لك طبق الأكل الذي تحب.

كان روبيرتو يفكر طوال مدة تنزهه بأرجاء المدينة الفسيحة ، كل الذكريات التي عجت بها طفولته داخل أزقتها وباحاتها ومعالمها ، ولكنه كان يفكر في الوضع الذي آلت إليه أسرته ، إنه يريد الآن أن يفتح صفحة جديدة معها ومع الحاضر .

ربما يكاد يختنق عندما يدرك بأن الوضع الآن قد تغير جذريا بعد وفاة زوج والدته السيد نيكيتا ، حيث أنه لم يكن يرغب به ولا يحبه .

iLovePDF

لقد كان يعتبره إنسانا غير مسؤول وهو الذي أذكى نار التفرقة ما بين فيتلانا وماريا وهو الذي بسببه تشرذمت العائلة الآن ، وتمزقت كل ممزق ، كل ذلك بسبب تسيبه ولا عدالته .

إنه يعلم كذلك بأنه شخص إرهابي يزرع الموت في كل مكان وهو الذي يتاجر بالأسلحة يهربها عبر الحدود مع جماعة تعيش الظلام و تزرع بذور الفناء في كل مكان ، ولكنه لا يريد التكلم مع أمه و أخته في هذه الأمور على الأقل في الوقت الراهن .

لقد زادت درجة هواجسه تجاه عائلته ، لذا هو يصر على ترحيلها بأي ثمن كان ، إنه كذلك حزين عن كل لحظات البعد التي عاشها بعيد عن الأجواء الأسرية التي لا تقدر بثمن ولا يوجد لها نظير متاح ، لكنه كان مرغما على ذلك .

لقد هاجر بعد أن رأى أن نيكيتا يكرهه ولم يساعده بشيء لقد همشه بشكل ممنهج و مبرمج ، لذا كانت هجرته قرارا وليست اختيارا ، ثم إنه الآن يدير منجما لاستخراج الذهب لمالكه السيد مارك الذي عجز وأُقعد على كرسيٍ متحرك وصار مرغما بعد نصائح الأطباء بالابتعاد عن أجواء العمل حيث قام بتكليفه بتسيير المنجم كلية، وبالتالي فعليه الالتزام بذلك .

لقد استغل روبيرتو فرصة أشغال الصيانة خارج المنجم وغلقه بصفة مؤقتة لطلب عطلة من السيد مارك الذي وافق بسرعة خاصة وأن روبيرتو لم يستفد من راحة وكذا لم يستفد من زيارة أهله منذ مدة طويلة .

وافقت ناتاليا وماريا على عرض روبيرتو في السفر إلى موكاردا والاستقرار هناك لمدة غير معلومة ، حيث تمت إجراءات السفر والتنقل بسرعة خاصة و أن المال موجود ، لقد سافر روبيرتو قبلهما ، وانتظرت ناتاليا إلى غاية انتهاء ابنتها من مناقشة مذكرتها ونهاية دراستها وحصولها على الشهادة .

iLovePDF

بعد رحلة سفر شاقة ومضنية نحو موكاردا ثم إلى مدينة دوفاريا ، وصل الجميع منهكون ، لقد استغربت ناتاليا من طول مدة الرّحلة ، إنها تخيلت طوال مدة الرحلة بأنها في سفر إلى نهاية العالم أو إلى مكان خارج المجرة .

لم تكن ناتاليا وماريا تدريان بأنهما سيقطنان في بيت فاخر مثل هذا الذي أسكنهما فيه روبيرتو ، لقد أنساهما بكل تأكيد روعة المكان و سحره كل ذلك الجمال الذي تذوقتاه في البيت الأول .

الأشجار و الأزهار و المياه في كل مكان و الطيور على مختلف أصنافها و أصواتها تملئ المكان و تزيده سحرا ، الأجواء يخيم عليها الدفء العاطفي و الحرارة اللطيفة و السماء الزرقاء خارجا تمر بها السحب و تعانقها في هدوء .

لقد كانت فرحة روبيرتو بهذا الأمر أكثر من فرحة والدته وأخته ، ربما يدور بعقله أنه حقق حلما طريا يافعا ، سيرتاح قلبه بكل تأكيد وعينه الآن تقر برؤية أقرب الناس إليه فلا مجال الأن للخوف عليهما بعد الآن .

في اليوم الموالي ، استقل روبيرتو سيارته الفارهة و توجه نحو البيت الجديد الذي تسكنه والدته وأخته ماريا ، حيث أقلهما و ذهب الجميع في رحلة نحو أرجاء مدينة دوفاريا الجميلة حيث عرفهما بكل زواياها ومعالمها وأثارها وحدائقها.

لم يكن روبيرتو لينهى الزيارة حتى يقوم بأخذهما إلى حيث يعمل ،إلى منجم الذهب الخاص بالسيد مارك ، إنه مكان رائع فعلا ، حيث جميع العمال وكأنهم في خلية نحل ، لا مكان هنا للكسل أو التقاعس ، الكل يعمل ويجتهد ، ويلقي بالتحية بكل احترام ووقار على العائلة .

لم تصدق ماريا ما رأته بعينيها ، لقد ظلت تسمع لردح غير يسير من الزمن على أن موكاردا بلد فقير ينعدم للإمكانيات ، يعيش على مساعدات وهبات الغير ،

iLovePDF

لا توجد بـه أي حركـة ، بلـد الصـحراء حيـث لا أنـيس و لا جلـيس ، لا بنايـات ولا مناطق جذب ، بلد تعرض للاستعمار ولايزال هو بعده عاجز عن فعل أي شيء .

إنهـا مندهشـة مـن كـل الـذي يمـر ببصـرها ، ربمـا لـم تـرى الشـيء الكثيـر يقـول لهـا روبيرتـو بعـدما شـاهد كـل علامـات الانـدهاش و الغرابـة تصـدر منهـا ، كـل هـذا وهـذا البلد لايزال يرنح تحت نير الاستعمار البيترو فيامي .

عاهـد روبيرتـو أختـه ماريـا بزيـارة أخـرى حـول المدينـة ، والبحـث كـذلك عـن مكـان هـادئ وجـذاب يكـون مقـرا لعيادتهـا الجديـدة والتـي اقتـرح عليهـا تسـميتها باسـمها الحقيقي (عيادة ماريا).

لقـد كانـت متحمسـة جـدا مـن أجـل ذلـك إنهـا الخطـوة الأولـى فـي المجـال العملـي ، إنهـا تمثـل لهـا إثبـات ذاتهـا ، وتحقيـق حلـم آسـر لطالمـا ظـل بقلبهـا ، وكـذا تحقيـق نـوع مـن الاسـتقلالية فـي حياتهـا ، إنهـا تعلـم أنهـا أكثـرت علـى والـدتها بطلباتهـا وكـذلك لا تريـد بالنهايـة أن تكـون عبئـا علـى أخاهـا الـذي سـيفتح لهـا العيـادة مـن مالـه الخـاص ، كمـا أنهـا تريـد القيـام بعمـل إنسـاني وهـو مسـاعدة المرضـى وتقـديم يـد العـون لهـم ، والإسهام في شفائهم وزرع الأمل دائما في وجوههم.

لـم يكـن صـعبا علـى ماريـا وأخيهـا إيجـاد مكـان ملائـم للعيـادة ، إنـه حـي ماهايـا حيـث الهـدوء رغـم الاكتظـاظ بالسـكان وحيـث جمـال المكـان الـذي يعطـي لـك انطباعـا بأنـك فـي أحد الأحياء الراقية .

قـام روبيرتـو بـدفع مسـتحقات الإيجـار لمـدة ثلاثـة سـنوات كاملـة كتسـبيق فـي الـدفع ، فهـو يريـد الاسـتئثار بهـذا المكـان الجميـل إلـى أطـول وقـت ممكـن ، بقـي الآن شـراء المعـدات و اللـوازم المناسـبة ، أرادت ماريـا شـراءها مـن اقـرب مكـان إلـى مقـر العيـادة لكن روبيرتو ضحك من كلامها :

_ماذا تقولين ، بكل تأكيد لن يتم شراءها من هنا ؟

iLovePDF

_ولكن لماذا تقول أخي ؟ إذن من أين ؟

_لا عليك أبدا، لقد قمت بشرائها من أحد المحلات المتخصصة الضخمة هنا ؟

_لا، من دولة رودمارابيا ، وهي الآن على مرمى حجر من الوصول إلى الميناء ، أريد بالنهاية شراء لوازم ومعدات جديدة و مضمونة وذات نوعية لا يشق لجودتها غبار ، أنت تستحقين الأفضل ، ما عليك بعد وصولها سوى التشمير على ساعديك والعمل بتفان وإخلاص، أريد أن أراك أحسن طبيبة في العالم .

_ أنا ممتنة لك أخي، أنا فرحة للغاية، لا أعلم كيف أشكرك، لقد قمت بتحقيق شيء جميل في حياتي.

وصلت التجهيزات الخاصة بالعيادة إلى الميناء ، وقام روبيرتو بإرسال أحد معارفه لاستقبالها والقيام بالإجراءات اللازمة لذلك ، ومن ثمة نقلها إلى العيادة الجديدة و توطينها ووضعها في شكل جد متناغم .

في اليوم الموالي قام روبيرتو بنقل ماريا ووالدتها الى المقر الجديد للعمل ، حيث ترجاهما بإغماض عينيهما و عدّ إلى غاية الرقم ثلاثة ، ثم طلب منهما فتحها ، يا للدهشة لم تصدق ماريا كل الذي تراه إنه أمر مستفز للفرحة والغبطة ، وكأنها حلم وردي .

لقد رأت كثيرا من العيادات خلال فترة دراستها التطبيقية ، لكن ليس في مستوى هذا المجال الذي تراه ، لم تتمالك نفسها من البكاء من شدة فرحتها :

_أشكرك أخي مرة أخرى، لم أكن أحلم أبدا بكل هذا.

_ تستحقين أفضل من هذا .

_ ولكن هذه اللوازم كلفت الكثير من المال ، أنا منزعجة من ذلك ، كنت أريد أنا وأمي أن نكونا معك سويا وهذا يكفينا ، في الحقيقة لم يكن في نيتي وضعك

iLovePDF

تحت كل هذه التكاليف وهذه المشقة ، أعدك بأنني سأشتغل بكل قوتي حتى أرجع لك هذا الدّين الذي على كاهلي .

_ بل عديني ، أن تشتغلين بجهد حتى تساعدي المرضى وتقومي بأداء رسالتك النبيلة بكل صدق وأمانة ، أنا لا أحتاج إلى المال صدقيني ، عندي ما يكفي وأكثر ، أنا أحتاج إلى أشخاص رائعين مثلك أنت وأمي ، يعطون لحياتي طعما ولونا.

باشرت ماريا عملها مباشرة في عيادتها الجميلة، وهي تحث نفسها على تقديم كل ما لديها لتنفيذ الوعد القاطع الذي أبرمته مع أخيها.

قام السيد مارك مالك المنجم بزيارة عمل وتفقد للمنجم ، خاصة وأنه صار قليل الظهور بسبب مرضه ، أين أسدى بنصائحه و توجيهاته لكل العمال ثم ولج إلى مكتب روبيرتو الذي كان في استقباله منذ البداية ، انطلق السيد مارك في الكلام :

_ لقد قمت بزيارة خاطفة إلى المنجم ورأيت أشياء انبهرت لها ، ولكنني أركز دائما على دوام الشغل بنفس النمط والبذل أو أكثر ، نحن اليوم – بني – في دائرة المنافسة الشرسة مع آخرين ، ولقد تعودنا على الريادة فلا مجال إذن للتراخي أو التراجع ، ولقد اخترتك من دون الناس لأنني توسمت فيك كل علامات النجاح ، إذن ابق على عهدي بك ؟

_ أعدك سيد مارك بالعمل بكافة نصائحك و توجيهاتك.

_ أعذرني لم أستطيع زيارة عائلتك الأيام الفارطة ، أعدك بأنني سأقوم الأربعاء القادم بذلك حال استطاعتي .

على الرحب والسعة سيدي، أهلا بك في كل وقت تريد.

قام روبارتو بإخبار والدته و أخته برغبة السيد مارك في زيارتهم قريبا ، وبأنه يريد القيام بهذه الزيارة من باب المجاملة و الترحيب بالعائلة في هذا البلد الغريب عنهم .

iLovePDF

أمر مثل هذا جعل ناتاليا وماريا تطيران فرحا خاصة وأن هذا الإنسان كان له فضل جزيلٌ في تشغيل روبارتو، ووصوله إلى ما هو عليه الآن.

مرت أيام الأسبوع بسرعة البرق ، وحانت زيارة السيد مارك إلى البيت العائلي لروبارتو ، لقد وجد الجميع في استقباله بالورود الطبيعية من مختلف الألوان و الأشكال وبهدايا تعبيرية .

جلس الجميع حول المائدة في سرور ، تناول روبارتو الكلمة وعرّف الجميع ببعضهم البعض ، لكن سرعان ما أخذ منه السيد مارك الكلمة قائلا :

_لم أكن أعلم بني بأنك تثرثر كثيرا، هلاّ تركت لي بعض الوقت لأتكلم أنا أيضا، لا تحتكر الكلام على كل أنا لازلت شابا.

ضحك الجميع من خفة روح السيد مارك داعين إياه إلى الكلام :

_ أنا اليوم بينكم ولا أحس أبدا أنني غريب عنكم بل قريب منكم ، ربما لانعرف بعضنا ولكن اعتبر روبارتو بمثابة أقوى جسر يربط بيننا ، أنتم بمثابة عائلتي .

أرادت ماريا معرفة المزيد عن هذا الرجل الذي كان له إسهام كبير في وصولهم إلى ما هم عليه:

_حدثنا سيدي عن نفسك ، نحن نتوق إلى ذلك حقا ، يبدو أنك رجل ملهم لغيرك ، وعلى الغير التعلم منك ؟

تنهد السيد مارك بعمق وأخذ نفسا عميقا :

_ماذا أقول لك بنيتي، ومن أين لك أبدا ؟ غالبا ما ينظر الناس إلى النهايات وليس إلى البدايات ، ، لكي تعرفي النهاية لابد لك من سبر أغوار البداية ، أتقي بكثير من الناس في الحياة ، إنهم يظنون بأن الوصول إلى مركز اجتماعي مرموق أو تحصيل المال والجاه أمر سهل متاح دون جهد أو كلل أو تعب ، أنظري إلى

iLovePDF

الـذين كـانوا مـن قبلنـا حيـث كـانوا أشـد قـوة وآثـارا وجاهـا ، وعمـرو الأرض وآثـارهم وشواهدهم لاتزال شاهدة عليهم حتى اليوم .

واصل كلامه ، وطفق يقول:

_هـؤلاء النـاس كـدوا وتعبـوا حتـى وصـلوا إلـى مـا وصـلوا إليـه، لـم تـأت الأمـور هكذا أو بالصدفة.

قاطعته ماريا :

_عذراً سيدي ، يبدو أنك عشت حياةَ كادحةَ؟

_أنـا إنسـان ولـد فـي بيئـة معدومـة الإمكانيـات ، والـدي لـم يكـن بالكـاد يحصـل علـى مبلـغ بسـيط قـد لا يكـاد يكفيـه حتـى لشـراء أبسـط اللـوازم و ضـروريات الحيـاة ، لقـد كـان يعمـل إسـكافيا بسـيطا فـي أحـد شـوارع المدينـة ، لقـد تحمـل صـنوف العـذاب والأمـراض خـلال مشـوار عملـه المضـنى ، تحمـل كـل المشـقات والعقبـات مـن أجـل أن يرانـا نكبـر رجـالا بـين عينيـه ، عمـل وعـاش فـي أجـواء حـرب و تـوتر ، لـم تكـن المنطقـة وقتهـا تعـيش حالـة اسـتقرار أكثـر مـن الآن لقـد كـان الوضـع بائسـا جـدا ، حتى مغريات الحياة وزينتها كانت مفقودة .

أمـا والـدتي فكانـت ماكثـة بالبيـت تهـتم برعايتنـا ومنحنـا ذلـك البـذل العـاطفي الـذي صـار أولاد اليـوم يفتقدونـه ، نعـم لقـد كانـت بملابـس رثـة وباليـة ، لـم يكـن لـديها قـوت يومهـا ، ولكـن هـذا الأمـر لـم يمنعهـا أبـدا فـي خـوض معركـة التربيـة القويمـة النبيلـة ، ورغـم أنهـا كانـت أميـة لا تعـرف القـراءة ولا الكتابـة إلا أنهـا كانـت تفهـم الحيـاة أكثـر مما يفهمه نساء اليوم .

انبرت ماريا إلى المقاطعة مجدداً:

_ولكنني أتوق سيدي لمعرفة كيف تغيرت حياتك ؟

iLovePDF

_أنظري بنيتي ، عندما كنت صبيا مراهقا علمت أن لا مستقبل لي مع الدراسة التي أفنيت فيها طفولتي وشبابي ، لقد كان الوضع التعليمي في البلد صعبا جدا ، لكن والدي أراد لي شق طريق العلم بأي وسيلة ، إنه كان شديد الحرص على أن لا أكون أميّا مثله .

غطت سحابةٌ من الحزن وجهه، ثم استرسل يقول:

_لقد كان يوبخني ويعاقبني في حال التغيب أو التأخر عن الدروس ، كنا ندرس ونتعلم في مدارس المستعمر الذي لايزال يجثم فوق أرضنا و الذي أراد طمس هويتنا وتحوير انتمائنا وتفكيرنا ، لقد كان كل شيء تحت سلطة مؤدلجة بغيضة ، لم أكن أدري يوما بأن نصائح أبي وصبره على تعليمي كان أمرا فارقا في حياتي ، أنت الآن بنيتي طبيبة ولولا تعلمك وصبرك لما صرت كذلك ، أليس كذلك ؟

_بلى ، سيدي ، أنت محق ؟

_لقد تغيرت قناعتي عن العلم والمدرسة عندما تجاوزت الأربعين من العمر ، عندما تزوجت ، وفهمت الحياة جيدا ، حين تمنيت الرجوع إلى الوراء ، إلى الحضانة ، إلى المدرسة حيث دفء الكتاب و الكراسي والقلم ، بالعلم بنيتي يشق المرء طرقا و دروبا في البر والبحر ، أنظري كيف تغيرت معالم دول ، وتنامت اقتصاداتها وتكنولوجياتها بالعلم والعلماء .

_ثم ماذا سيدي ؟

_تقصدين الثروة ...لقد كان لجدي قطعة أرض بها منجم خامد يلعب فيه الأولاد ويتشيطنون ، تلك الأرض التي لم تكن معطاءة بسبب نوعية تربتها وكذا لعدم وجود وسائل لتهيئتها كانت مهملة أغلب الوقت ، بعد وفاته تحولت ملكيتها إلى ذمة أبي ، كذلك لم يتمتع هو الأخر بها بسبب عوزه وفاقته وذلك بسبب منع المستعمرين إياه من حتى مجرد الاقتراب منها حيث نصبوا بها مركز مراقبة ،

iLovePDF

واعتبروها منطقة معزولة ، ثم تحولت ملكيتها لي بعد ذلك. بيت القصيد في المسألة أن أحد الجنود المستعمرين أصيب إصابة بالغة في الأيام الأخيرة من أيام المعتدين كانت تبدو عليه علامات عدم الرّضا على قيادته الظالمة الفاسدة وعدم رضاه كذلك على الاعتداء على حقوق الغير ابتداءَ ، أخبرني بوجود تراب براق داخل المنجم ، بحجم أصبع من أصابع اليد الواحدة ، لقد كان يتكلم وهو يجود بنفسه ، لم يلبث أن يتم كلامه حتى وقع ميتا ...في حقيقة الأمر أنا مندهش من تصرفه هذا لحد الآن بل إنني لم أجد له تفسيراَ؟ فكيف بعدوّ لك مهما كانت أخلاقه أن يخبرك بمثل هكذا خبر ؟ المهم عرفت بعدها أن كنزا ربما يكون في الداخل ، وكان لابد لي من خطة للدخول إلى عمقه ، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل الذريع بسبب الحزام الأمني للقوات المعادية .

لم يكن لي من بد سوى الاصطبار إلى غاية تغير تلك القوات للمكان و استرجاعي للأرض والمنجم وكذا الدعاء بأن لا يكشف أحدهم ذلك السر وإلا فإن كل شيء يذهب أدراج الرياح .

تحققت رغبتي في خروج الطُّغاة من الأرض وذهابهم إلى جهة أخرى وكذا في عدم انكشاف الأمر لأحد ، والأهم من ذلك كله هو تيقني بأن ذلك التراب اللامع ما هو إلا ذهب ممزوج بكثير من التراب و شوائب أخرى.

تجاسرت و تيقنت قبلها بأن الأمر جلل وأنني أمام فرصة العمر يجب الا تضيع مني وأن أحاول وضعها طي الكتمان على الأقل في بداية الوقت ، لم يكن أمر الحصول على ذهب بشوائب سهل ، فكيف بالحصول على ذهب خالص ، بدأ الأمر حينها في غاية الصعوبة بل في قلب المستحيل ، إن أمرا مثل ذلك يحتاج إلى عتاد ومال و إرادة وصبر وعمل صارم وجهد رجال ولكن في ظل صعوبة التحصيل

iLovePDF

والتنقيب كان لزاما علي الاستعانة ببعض الرجال الذين أثق فيهم بمساعدتي ، وكان لي ذلك .

لقد عملنا بجهد كبير حتى وصلنا مرحلة استخراج كميات أفضل ، ربما يظن كثير من الناس أن أصحاب مناجم الفحم والذهب والماس يملكون العالم كله ، و أنهم يجنون ثروات و أموال بأرقام فلكية وهذا وهمٌ يجانب كثيرا كبد الحقيقة ، أي نعم هم أغنياء وأصحاب ثروة ولكن ليس بذلك الهول الذي يطلقه بعض الناس .

_لما سيدي، هل لي من إيضاح ؟ ربما لدي قصور في التصور فأنا لم أمارس مثل هذه النشاطات حتى أعلم ؟

_طبعا بنيتي ، إن جزءا من الأرباح تذهب لمعامل ومصانع تصفية و تنقية المستخرج من كل شائبة حتى يظهر فى شكله الأخير الذي يصل إلى المستهلك عطفا على الضرائب و الجبايات التي تطالب بها الدولة ...

أخذت ناتاليا فنجانا من القهوة وناولته إلى السيد مارك ، وهي تقول :

_هذا يكفى ماريا لقد أتعبت السيد مارك من كثرة أسئلتك وكلامك ؟

_حاضر أمي سأفعل.

التفت السيد مارك إلى ناتاليا مجددا وبادرها بالقول :

_لا عليك سيدة ناتاليا ، دعيها تطرح ما تشاء من الأسئلة ، أنا هنا للإجابة .

ثم استدار بوجهه نحو ماريا وهو يقول مبتسما :

_أليس كذلك بنيتي ؟

تبسم الجميع تغرهم ، قام السيد مارك من مكانه ليجلس على مقعده المتحرك وهو يشكرهم على طيب الاستقبال وحسن الضيافة ، مترجيا إياهم بالتواصل معه حال حاجتهم لأي شيء مهما كان ، ثم انصرف و توجه نحو بيته .

iLovePDF

لـم تمـر سـوى أيـام قلائـل علـى زيارتـه ، حتـى طلـب السـيد مـارك موعـدا جديـدا لزيارتهم عن طريق روبيرتو الذي قبل الزيارة باسم عائلته بكل سرور وبهجة .

فـي صـباح اليـوم المـوالي للطلـب، قصـد السـيد مـارك بيـت العائلـة، ليجـد ترحابـا شـديدا مـن لـدن أفـراد الأسـرة الـذي كـانوا فـي انتظـاره، إنهـا عطلـة نهايـة الأسـبوع وهي فرصة ربما كان يتحينها السيد مارك حتى يجد الجميع بالبيت .

جلس الجميع ، وبادرهم روبيرتو بالكلام :

_يبـدو أن السـيد مـارك صـار مـدمنا لقهوتنـا ، لـذا أراد المجـيء شخصـيا وشـربها معنا ، أليس كذلك سيدي .

ضحك السيد مارك بقوة وهو يقول :

_صـدقت بنـي ،لـم أتـذوق فـي حيـاتي قهـوة مميـزة مثـل التـي تـذوقتها عنـدكم ولهـذا آليـت علـى نفسـي الحضـور لشـربها ولـو بتـذوق رشـفة واحـدة ، ولكـن أخبرونـي مـن قام بتحضيرها ؟ هل لديكم خدم بكل هذا الذوق و الجودة .

رد روبيرتو :

_لا أعلـم سـيدي ، أنـا مثلـك أشـرب قهـوتي ، ثـم انصـرف ، نحـن الرجـال نأكـل ونشرب ولا نسأل .

_ولكننا نسأل في حالة واحدة بني ؟

_ماهي سيدي ، منك نتعلم ؟

_إذ كانت الوجبة المقدمة ليست في مستوى الذوق .

ضـحك الجميـع وهـم يبـادرون السـيد مـارك بـالجواب بحركـة الإيجـاب، بيـد أنـه أصـر إصـرارا فـي معرفـة مـن قـام بتحضـير القهـوة ، فأجابـت ماريـا بـأن والـدتها هـي التـي فعلت . تبسم ابتسامة خفيفة ثم قال :

iLovePDF

_لقد سبق وأن قلت لكم في زيارتي الماضية ، لو احتجتم أي شيء أنا هنا مستعد للتنفيذ و طوع إشارتكم في أية لحظة تريدون ، لكنني اليوم ، أنا الذي بحاجة إليكم .

تعجب الجميع من قوله، ثم سكت برهة زمن وأردف يقول :

_جئتكم اليوم معجب بصاحبة القهوة ، ثم التفت إلى ناتاليا عارضا عليها الزواج :

_هل لي سيدتي بقبول شرف الارتباط بك ؟

احمر وجه ناتاليا وضاعت الحروف والكلمات من لسانها ، وارتبكت ، لكن السيد مارك كسر حاجز الخجل بقوله :

_لست مضطرة للإجابة على عرضي ؟ على كل حال سأترك لك مجالا للتفكير الهادئ وخذي ما شئت من الوقت ثم قرري أي قرار ولو كان سلبيا ، سأتقبل ذلك بصدر رحب .

أخرج من جيبه حزمة من الأوراق نقدية ، ووضعها أمام ناتاليا وهو يبتسم ويقول :

_هذه هدية مني إليك ، كنت أريد أن أقدم لك طاقما من الذهب الخالص ، وبما أنني صاحب منجم ذهب ارتأيت أن أقوم بكسر الروتين ، ما الذي يستعجلنا إن قبلت العرض فالذهب قادم لا مفر .

انطلقت ناتاليا نحو التفكير الجدي في العرض المقدم من طرف السيد مارك ، إنها تدرك أن فرصة رائعة قد ساقتها الأقدار إليها سوقا ، فرجل مثل هذا لا يمكن لأي إنسانة أن ترفض وترد له طلبا ، إنه شخص محترم صاحب سمعة ومكانة اجتماعية مرموقة ، كما أنه صاحب منجم ذهب و الكل يحسب له كل الحساب .

iLovePDF

ولكنهـا لاتـزال تعـيش علـى ذكريـات زوجهـا الراحـل ، كمـا أنهـا لـم تعـد ترغـب بالارتبـاط بـل إنهـا تفكـر فـي تـزويج ابنهـا وابنتهـا وإسـعادهما ورؤيـة أولادهمـا مادامـت على قيد الحياة، وهو أمر يتمناه كل أب وأم .

لـم تـرد أن تسـتثئر بـالتفكير لوحـدها ، بـل أرادت أن تشـرك ولـديها فـي ذلـك ، إنها ترى بأنهما جزء مهم من المشروع الذي لا يخصها بالنهاية لوحدها .

ومثلمـا توقعـت لـم يـرفض روبيرتـو وماريـا عـرض السـيد مـارك ، بـل إنهمـا باركاه خاصة بعدما توسما الخير فيه .

لقـد كـان روبيرتـو يتحـدث بكـل شـيء يعرفـه عـن مـارك ، كـل التفاصـيل و الأمـور الدقيقة بلا استثناء حتى يكوّن لوالدته فكرة قريبة و صحيحة عنه .

أبلـغ روبيرتـو مـارك بخبـر قبـول والدتـه العـرض ، فطـار فرحـا ، وبـدأ مـن حينهـا إجراءات عقد القران ، إنه يريده متفردا وكأنه سيتزوج لأول مرة .

رنـت الأجـراس وتوشـحت الأمـاكن القريبـة مـن بيـت السـيد مـارك بـالورود والأشجار الاصطناعية فبدا المنظر وكأنه حديقة غنّاء أو منتزه أسطوري .

انطلقـت الفعاليـات حيـث السـيارات الفارهـة تجـوب كـل أنحـاء المدينـة وتطلـق العنـان لفرحـة النـاس الـذين أحبـوا بصـدق هـذا الإنسـان الـذي زرع البسـمة فـي وجـوه الفقراء و المعدومين وهاهم اليوم بجانبه يشاركونه سعادته ويقاسمونه فرحته .

iLovePDF

5.آخر فرصة.

iLovePDF

فـتح نيكيتـا عينيـه مجـددا ليجـد نفسـه فـي مكـان بعيـد لا يعرفـه ولا يسـتطيع حتـى إدراكـه ، يخـال حالـه وكأنـه عصـفور مقطـع الجنـاحين مسـتو علـى مقـلاة تحتهـا نـار ، لا هـو يسـتطيع الطيـران و الفـرار بجلـده مـن العـذاب الـذي يسـومُه ، ولا هـو بالميـت الذي فارق الحياة وتخلص من النار المتقدة التي تدنوه .

مازالـت الألآم و الأوجـاع تنخـر كـل شـبر مـن جسـده فالضـربة القاتلـة لـم تكـن رحيمـة ، كيـف لا والشـفرة الحـادة اخترقـت جـزءا مـن بدنـه فأوقعـت فـي الـروح دمـا قبل أن توقعه في الجسد .

لايـزال بصـورته تلـك يعـيش بـين الـوعي و اللاوعـي ، بـين الحقيقـة و السـراب ، بـين العـالم الموجـود و العـالم اللاموجـود ، لا يعلـم إن كـان قـاد عـاد إلـى الحيـاة مـن جديد كله أم رجع إليها منه جزء .

يغيـب فيتيـه إلـى غيـر رجعـة ، ويعـود فينتبـه باحساسـه دون رجعـة ، تتـزاحم فـي برهـة زمـن كـل تلـك الصـور التـي مـرت بحياتـه وبالبشـاعتها وقبحهـا ، إنـه يـرى كـل الأباطيـل التـي كـان يفعلهـا ومـا أكثرهـا ، يريـد أن يعـود إلـى حالـة اللاحيـاة التـي تـذوقها بعد غرسة السكين .

أمـر فريـديريك معاونيـه بالاعتنـاء الجيـد بنيكيتـا ، إنـه كنـز ثمـين ، يجـب أن يعـود ، أن يبقى حيا مهما كان الثمن .

الكـل يضـبط سـاعته علـى ميقـات دقـات قلـب نيكيتـا الـذي يتـرنح في مكانـه ، فيحـدث حالة طوارئ كبرى .

iLovePDF

مـرت الأيـام بطولهـا هكـذا والجميـع قـد بـدأ يتغلغـل إليـه اليـأس مـن هـذه الحالـة العصـيبة ، مـأ أضـطر فريـديريك إلـى الاسـتعانة بالـدكتور جيفرسـون أحـد أمهـر و أكبـر جراحي القلب بالعالم آنذاك .

لـم يكـن لفريـديريك أن يفعـل ذلـك ويجلـب هـذا الطبيـب المحنـك بمبلـغ بـاهض للغايـة سـوى لأنـه يعلـم أن حيـاة نيكيتـا مهمـة للغايـة بالنسـبة لـه وبالنسـبة لمشـروعه الـذي يريد له النجاح مهما كان الثمن ومهما كانت الظروف .

إن إنسـانا مثلـه لـم يتعـود الفشـل ولا التراجـع ، إنـه يعـيش حالـة نجـاح مسـتمر ويعـيش كـذلك حالـة مـن التنـافس الشـرس مـع مجموعـات أخـرى تقتـات مـن نفـس النشـاط المُحـرّم و المُجـرّم قانونـا وعرفـا ، ولهـذا فـإن فريـديريك يقـوم بفعـل المستحيلات السبع في كل حركاته وسكناته .

التقـى فريـديريك فـي أمسـية بازغـة القمـر ، الطبيـب جيفرسـون الـذي وصـل لتـوه إلـى مكـان عـلاج نيكيتـا ، حيـث أمـر معاونيـه بتركهمـا لوحـدهما و الاعتنـاء الشـديد بنيكيتا في القاعة المخصصة له .

تناول فريديريك زجاجة النبيذ فسقى للطبيب كأسا ثم آخر لنفسه وهو يقول :

_لقـد أطلـت المجـيء إلـى هنـا دكتـور ، لقـد جعلتنـي أنتظـرك مـدة طويلـة ، أنـت تعلـم بأنـك سـتقوم بمهمـة إنسـانية وهـي إنقـاذ شـخص علـى شـفير المـوت ، أنـا أعلـم بأنـك مـن أمهـر جراحـي القلـب بالعـالم ، ولهـذا فاختيـاري لـك لـم يكـن مـن محـض الصـدفة ولا من قبيل المحاباة ، وأظنك تعلم ذلك جيدا .

_مـا جعلنـي أتـأخر كـل هـذا الوقـت هـو وجـود عديـد الالتزامـات المهنيـة علـى عـاتقي ، أنـا لسـت حـرا طليقـا ، أنـت تعلـم كمـا هـو صـعب أن تتـاح لـك سـاعة نـوم هنيئـة فـي اليـوم ، الأمـر لـيس سـهلا ، ضـف إلـى ذلـك أنـه كلمـا زادت قيمتـك وعـلا شـأنك فـي

iLovePDF

مهنتك زادت مسؤولياتك وكثر الكلام عنك ، كذلك فإن كل حركاتي وسكناتي مراقبة ومحسوبة علي ، لهذا كله لم أستطع المجيء بالسرعة التي تريدها أنت مني .

_ولكنني اقترحت عليك مبلغا مغريا ، وتسبيقا يفتح الشهية.

_ليس المشكل في المال ، بل في جوانب فنية وتقنية ، لقد شرحت لك ذلك .

_اسمع دكتور جيفرسون ، لا يوجد لدي مشكل في المال ولكنني أعيد التنويه بشيء مهم ، يجب عليك فعل المستحيل لإنقاذ هذا المريض فهو مهم جدا بالنسبة لي ، ثم إن عليك الاحتفاظ بذلك سرا ، وأظن أن من الأسرار المهنية للطبيب عدم إفشاءه لسر المهنة تحت أي وازع أو دافع .

_طب خاطرا ، لست مضطرا للكلام في خصوص هذا الأمر ، يجب أن تعلم أن الأمر سيظل سرا بيننا .

بدأ الطبيب مهمته الأساسية فى إنقاذ وانتشال نيكيتا من جحيم الموت الذي يهدده في كل لحظة ، لقد أنقذه الطبيب الذي سبقه والذي أتى به فريديرك أول مرة ، لكنه لم يستطع فعل شيء أكثر من الذي فعله رغم خبرته المشهود بها له في مجاله لمدة طويلة من الزمن .

أمر مثل ذلك دفع فريديرك إلى عدم تضيع المزيد من الوقت وعدم وضع نيكيتا على كف عفريت ، وهو الذي بنجاته سيكسب مزيدا من المال والجاه لا ريب.

كان على فريديريك تلبية جميع مطالب الدكتور جيفرسون من أدوية ووسائل و لوازم طبية تعينه في عمله و تزيد من فرص نجاة المريض الذي لا يدري أين هو ولا هوية الأشخاص الذين معه ولا هدفهم من تأميمه أو بالأحرى سرقته من المستشفى .

لم يكن لفريديرك كذلك أن يهنأ له بال خاصة خارج المحيط الذي يوجد فيه هو وتنظيمه ، إنه يشدد الحراسة بشكل خرافي على مستوى كل شبر منه ، و يتوجس

iLovePDF

خيفة من كل شيء قد يحدث في رفة عين ، رغم أن المكان موجود في منطقةٍ نائية لا تخطر على بال بشر وأكثر من هذا تحت الأرض .

ومنذ أن وطئت رجل الطبيب جفرسون المكان ، ظل فريديرك يرمقه بنظراته الثاقبة وبشكل دائم ، ربما لخوفه من هذا الرجل الذي يبقى غريبا وجدير به وبأصحابه أن لا يعلم شيئا ، فقط أن يقوم بمهمته ثم يتقاضى باقي المبلغ المتفق عليه وبعدها ينصرف .

لم تكن الإحتياطات الأمنية عرضية بل إن الطبيب وقبل وصوله بمسافة طويلة تم تعصيب عينيه بخرقة قماش حتى لا يعرف للخريطة وللمكان طريق ، أمر مثل هذا جعله ذات لحظة يطرح سؤالا فضوليا على فريديرك :

_ما بال الطبيب الذي كان قبلي ؟

_لقد عمل الذي بوسعه ولكنه عجز في نهاية المطاف ، فأردنا شكره ومنحناه كافة مستحقاته ثم غادر المكان إلى بيته .

ثم نظر إليه نظرة حادة ، توحي بالخوف و الرعب ، كان على الطبيب جفرسون أن يفعل المستحيل حتى تنجح مهمته ، إنه لا يريد الذهاب كما جاء ، بل إنه مرتعب من عاقبة فشله فهو لا يعلم ما الذي سيفعل به مطلقا .

إن نظرة مثل تلك التي أطلقها فريديرك و صوّبها نحوه لكفيلة بجعله يرقص رعبا ويأكل خوفا ويشرب فزعا ، ربما في لحظة تأمل انتابه نوع من الندم على قبول هذه المهمة الإنسانية القذرة ، لكنه الآن في معتقلهم وقد جاء بمحض إرادته وعليه القيام بمهمته فالبحر من أمامه والنار من ورائه .

إن نجاح المهمة بالنسبة له يعني ضخ سيولة مالية في جيبه والنجاة بجلده ثم الرجوع إلى بيته وأهله .

iLovePDF

مـرت أيـام وليـال مـن بـدأ مرحلـة العـلاج الحاسـمة ، وبـدأ نيكيتـا يسـتجيب قلبـه بـل جسـده وعقلـه ، عـادت كـل الوظـائف الحيويـة لتعمـل بشـكل طبيعـي تـدريجيا ، وملامـح البشـر والسـرور تعلـو محيـا كـل مـن فـي المكـان خاصـة الطبيـب و فريـديرك ، ومـاهي إلا ساعات أخرى حتى بدأ بالتواصل معهما بالكلام أحيانا وبالإيماء أحيانا أخرى .

لـم يـرد فريـدريك أن يتسـرع ويسـرح الطبيـب ويـأمر الجميـع بالـذهاب و الرحيـل النهـائي مـن المكـان، بـل إنـه أراد التمهـل أكثـر حتـى يسـتتب الوضـع الصـحي لنيكيتـا أكثـر ، فالمسـافة بعيـدة والسـفر قطعـة مـن العـذاب و الـزاد مطلـوب و مرغـوب ، وفعـلا حـدث ذلـك وشُـفي نيكيتـا نهائيـا و تحققـت رغبـة فريـديرك ، هنـا رخـص للطبيـب جفرسون بالانصراف من المكان بالقول :

_شـكرا لـك سـيد جفرسـون ، لقـد وفيْـت وكفيْـت وعالجـت مريضـنا ، وأنـا شـاكر لـك صنيعك الذي لن أنساه ما حييت .

_لا شـكر علـى واجـب سـيدي ، لقـد قمـت بـواجبي وهـذا مـن دواعـي فخـري وسروري .

_هيـا بنـا سأوصـلك إلـى حيـث تنتظـرك السـيارة التـي سـتنقلك إلـى حيـث شـئت ولا داعي لأن تعصب عينيك ، وإن احتجناك يوما ما سأقوم بإبلاغك حتما .

_أنـا طـوع ورهـن إشـارتك ، ولكـن قبـل لـك أريـد مقابـل عملـي وجهـدي وبقـائي هنـا لمدة طويلة .

_نعم ، لك ذلك سأمنحه لك بعد قليل ، بعد أن نخرج من هنا .

انطلـق الـرجلان مسـافة سـير ليسـت بالقليلـة ، ثـم أشـهر فريـديرك مسدسـه صـوب الطبيب وهو يضحك بقوة وباستهزاء :

_هـذه هديـة منـي لـك سـيدي الطبيـب ، أتظـن أننـي مغفـل ، لـن تعـالج آخـر بعـد هـذا العلاج الذي سيكون الأخير لك ، ولن تجرؤ على الإبلاغ ضدي لدى مصالح الأمن ؟

iLovePDF

عـاد فريـديرك إلـى المخبـأ وأمـر رجالـه بتجهيـز أنفسـهم للرحيـل إلـى مكـان آخـر وبأسرع مما يكون ، وأثناء الرحلة سأل نيكيتا فريديرك :

_هل ذهب الطبيب ؟

_لا تتـدخل فـي مـا لا يعنيـك، أنـا مـن أوجـه لـك الأسـئلة ولسـت أنـت ، أتظـن أنـي قمـت بفعـل المسـتحيل مـن أجـل جلبـك إلـى حيـث عولجـت كـان حبـا وكرامـة فيـك أم لسواد عيونك ، إن كنت تفكر هكذا فأنت حتما مخطئ .

_لماذا إذن؟

_لاتـدعِ الغبـاء والعتـه ، أنـت تعلـم مـا لـداعي لـذلك ، عليـك الآن أن تخبرنـا عـن مكان الأسلحة التي خبأتها وسبائك الذهب التي عندك ، وإلا فإن مصيرك الموت.

_ماذا تقول ؟

_ليس من عادتي تكرار ما أقول، هيا بسرعة أريد ذلك الآن ؟

_ولكن على رسلك ؟

_لست هنا للتمهل ، أنا هنا للوصول إلى مطالبي وبدقة .

_وماذا سيكون مصيري بعد ذلك هل هو نفس مصير الطبيب ؟

_ماذا تقول ؟

_لقد سمعت صوت رصاص ، لقد أجهزتم عليه ؟.

ضحك فريديرك بقوة ، ثم قال :

_بـل نحتاجـك لمهمـة كبـرى فـي القابـل ، إن حياتـك سـيد نيكيتـا غاليـة ونحتاجـك دائمـا معنـا ، ولـذلك مـن الضـروري أن تكـون بصـحة وعافيـة ، هيـا أخبرنـي عـن المكان .

_بالنسبة للأسلحة فهي في مخبأ روستوفا أم الذهب فهو في منطقة ديميا.

_الويل لك إن كنت تكذب .

iLovePDF

_لا ، أنا أتكلم عن صدق ، وسترى ذلك بعينيك ؟

وصل الجميع إلى حيث توجد أماكن السلاح والصفائح الذهبية ، وفي طريق رجوعهم ، صادفوا حاجز أمنيا ظنه في البداية فريديرك بأنه وهمي وأنه لجماعة أخرى تنشط في المجال ذاته ، لكنه تيقن بعدها بأنه حاجز قانوني ، إنه يعرف أحدهم عز المعرفة حيث كان يلتقيه أحيانا في حواجز أخرى ، فيسهل عليه المرور بعد منحه رشوة على شكل مكافأة مالية وهو عين الشيء الذي فعله هذه المرة كذلك .

قامت الحرب فعلا بعد أن كانت مجرد تخمينات رغم الإرهاصات الكبيرة التي كانت تحملها السنوات والأشهر القليلة التي سبقتها ، والتي لم يحسب لها الأغنياء وكذا الأبرياء حسابها ولم يعدو لها عدتها .

إنها الحرب التي لا تبقى ولا تذر ، ذلك الشر المستطير الذي يتأبط بكل الناس مهما كانت أعمارهم ومستوياتهم ومسؤولياتهم ومراكزهم ، ربما لم يستفد العالم من جحيم وتبعات الحروب التجارية والتكنولوجية والبيولوجية الدراماتيكية التي سبقتها .

تجار الحروب والأرواح لاهمّ لهمّ سوى مع المال و الرّبح السريع والجاه، ولا يهم كيفية التحصيل ، لا يهمهم من الذي اشترى ولما اشترى لأن الأهم عندهم هو المال ، لا يهمهم من الذي مات ومن الذي قتل وسفك الدماء لأن معبودهم المال ، لا تهمهم المرأة الثكلى ولا زفرات والآم الجرحى لأن وثنهم وصنمهم المال.

ماتت الضمائر والأخلاق والمبادئ فقط ليحيا المال، لا دينية ولا إنسانية. لا شرقية ولا غربية بل مالية نقدية ، يسقط الشرفاء في ساحات الوغي والدماء إلى الرقاب ...ليحيا الجبناء حول الجثث كالذباب.

iLovePDF

لـم تكـن تلـك العصـابة الفاسـدة سـوى واحـدة مـن أرمـادة هائلـة مـن العصـابات التـي تفعـل كـل شـيء ولـو ببيـع ذممهـا مـن أجـل إذكـاء نـار الحـروب ، والاصـطياد مـن مسـتنقعاتها وبركهـا القـذرة ، إنهـم يعملـون وينشـطون مـع حـزب الإنسـان و حـزب الشيطان لتنفيذ مخططاتهم العفنة .

لقـد ازدهـرت فـي لمـح البصـر تجـارة الأسـلحة غيـر المشـروعة ، وصـار السـلاح فـي أيـدي جميـع النـاس صـغارا وكبـارا بـدون قيـود ولا حـدود ، صـارت قطعـة السـلاح أرخـص بكثيـر مـن قطعـة حلـوى ، بـل إن دبابـات وقاذفـات ومارمالاكـات ـسـلاح مستجد- أصبحت تباع جهارا نهارا وبأقل سعرٍ من سيارات مهترئة .

هـذا هـو الحـال الـذي أرادتـه تلـك الجماعـات ولـم تكـن جماعـة فريـديرك سـوى واحـدة منهـا ، ناهيـك عـن السـلاح الفاسـد الـذي فعـل الأفاعيـل وصـار يهـدى فـي أعيـاد المـيلاد كقطعة حلويات تنتصب أعلاها شمعة متّقدة .

كـان علـى نيكيتـا أن يـذعن لفريـديرك و أن ينفـذ جميـع مطالبـه ورغابتـه ويـده وراء ظهـره ، إنـه العبـد الـذي بـاع شـرفه وعائلتـه بحفنـه دراهـم معـدودات وهـو علـى اسـتعداد لبيـع كـل شـيء أمامـه وخلفـه فقـط لإرضـاء سـيده الجديـد ، إنـه كـلام يعرفـه ويكرره له دائما ولي نعمته مذكرا إياه بماضيه السيء.

لقـد أسـمعه عبـارات (بـائع شـرفك بـأبخس ثمـن)... (تـاجر الـدم فـي الحـرب والسـلم).. (بـارون الممنوعـات والمهلوسـات)...(مهرب السّـلاح القـذر)، إنـه لا يكـاد يرحمـه و الويـل لـه إن قـرر أو فكـر فـي الهـروب والنـأي بنفسـه عـن الجماعـة وممارساتها .

لـم يكـن هـذا كـل مـا يريـده فريـديرك مـن نيكيتـا ، إنـه يريـد تجهيـزه علـى مـا يبـدو لمهمـة أخـرى قادمـة أصـعب وأقـذر ، مهمـة محفوفـة بكـل أنـواع المخـاطر ، فعبـد المـال لم ولن يقنع ولو حاز مفاتيح خزائن الأرض برمتها .

iLovePDF

فريـديرك عضـو بمنظمـة السـولوجرانيا ، وأحـد البالومـار المتشـدّدين ، لـم يكـن الوحيـد الـذي يعتنـق الفكـر البالومـاري الراديكـالي، إنـه واحـد مـن ضـمن المئـات بـل الآلاف عبـر العـالم ، تجمعهـم المصـلحة والهـدف الواحـد وإن اختلفـت مشـاربهم وسياقاتهم .

لكـن قـد لا يكـون لرمـوز الـدين قيمـة إذا لـم يكـن الفـرد متـدينا كفايـة ، فتـدين المظهـر واجب مقدس ، أما تدين الروح فذاك أمر ثانوي مسيس.

المـال عصـب الحيـاة وشـريان المصـالح الكبـرى ، ووجـوده أكثـر مـن ضـرورة ملحـة عند هؤلاء للوصول إلى تحقيق مآربهم ولو على جثث الآخرين.

لـم تتوجـه إرادة فريـديريك لجمـع المـال وتحصـيله مـن تجـارة السـلاح غيـر المشـروعة ، وخدمـة مشـاريع المنظمـة التـي ينتمـى إليهـا ، بـل توجهـت إرادتـه كـذلك للوصـول بنفسـه إلـى درجـة الثـراء الفـاحش وتبـوء مركـز مهـم فـي المجتمـع ، إنـه يقدس المظاهر البراقة ، ويجب الأنا و مهوس بالألقاب والنياشين و المراتب .

ولـذلك كلـه فـلا غرابـة فـي أنـه تـاجر حـاذق ومتمـرس ، فلـو تعارضـت مصـالحه الشخصـية مـع مصـالح المنظمـة فإنـه يقـدم مصـالحه عليهـا ، فالتـدين فـي منطـق هـؤلاء مجرد عبدٍ معروضٍ للبيع في المزاد العلني بسوق النخاسة .

عـرض فريـدريك علـى نيكيتـا تغييـر دينـه مـن البالوماريـة الكوسـاتية إلـى البالوماريـة الدراباكيـة - ديـن يضـم طبقـة أوليغارشـية منتفعـة تتخـذ مـن الـدّين رمـزا دون أن تمارسـه فعـلا- ، مقابـل بعـض المـال ، بعـد إن قـدم لـه ملامـح ومعلومـات عـن هـذا الـدين ، وكيـف أنـه يحتـاج إلـى شـخص يتخـذه دينـا وناموسـا فـي الحيـاة ، ثـم صـور لـه معانـاة مـن يتـدينون بهـا فـي العـالم مـن حـروب وإبـادات شـاملة وتهجيـر قسـري وقهري.

iLovePDF

ربما كان ذلك تمهيدا بارعا من فريدريك لاستدرار عواطف ومشاعر نيكيتا لإيلاج صاحبه في قلب الموضوع الذي يريد ، إنه يعلم بأن فريدريك شخص منبهر بالمظاهر ويعبد المناصب ، والأخير موقن بأن نيكيتا شخص متيّم بالمال ويسعى لفعل أي شيء مهما كان ولو لم يكن أخلاقيا ولا إنسانيا فقط من أجل الحصول على حفنة مال .

لاريب في أن المفاوضات لم تكن صعبة البتة بين رجل يمثل طائفة كبيرة من المجتمع حيث لادين ولا مبادئ فقط سلطان المال والجاه ، وآخر يمثل طائفة لا تقل أهمية عن الأولى تتخذ المصالح الشخصية الضيقة علما لها .

كان من بين الدروس التي ما فتئ يعيدها كل لحظة فريدريك ، أن الحرب قد قامت بعد أن كانت طبولها تقرع في الخفاء وما كان في السراديب العاتمة مختبأ قد خرج إلى العلن ، أنه يصور البوسيمية كديكتاتورية ذات يد ضاربة آثمة تخبط خبط عشواء كتلك الناقة الضربرة التي تمشي مشي التيهاء .

إنها عنصرية تمجد العنصر البوسيمي ، وتدهس كل من يعتنق فكر أو عقيدة غيرها ، إنها تمارس التصفية العرقية وتقمع وتكبت الحريات وتصادر الآراء ، بل إن أقليات موجودة ببوسيميا تعاني العنجهية و الهمجية العمياء والتي تمارس ضدها بشكل مروع وممنهج ، ناهيك عن المخططات التوسعية في إطار الحدود العائمة أو سياسة اللاحدود وبسط اليد على المناطق الحيوية ومناطق النفوذ التي أقرها عرابوها كفلسفة لا تقبل أي نقاش وكهدف سام لابد من تحقيقه مهما كلف ذلك الأمر من ثمن.

كانت هذه الديباجة ، الافتتاحية الرسمية والاعتيادية لفريديريك الذي أرادها أن تكون واحدة من المقبلات للولوج إلى الطبق الرئيس والذي يعج بالتوابل والدّسم ، لم يكن هذا الطبق سوى لنصرة المستضعفين نفاقا ، والذين يتعرضون لكافة

iLovePDF

أصناف العذاب والترويع وهم أقلية لا حيلة لهم بها ، ثم الانتصار لبلد القلب بوخارين الذي ينحدر منه كثير من الأعضاء من جماعة فريدريك الآثمة .

لم يكن النصر وفقا لإيديولوجية فريدريك إلا بالعمل على :

تمكين المقاتلين البوخاريين بالسلاح.

تصوير مشاهد قاسية لما يعانيه اللوفاريون في بوسيميا كأقلية مضطهدة.

نشر الأفكار التي تعتنقها الجماعة إلى أكبر قدر ممكن من الناس، والولاء لها.

تحقيق الأرباح المالية وهو أحد المقاصد التي لا تقبل القسمة على اثنين.

توجه فريديريك بكلامه إلى عناصر اختارها بدقة وعناية ومن ضمنها نيكيتا ، لزرعها كجواسيس داخل بوسيميا خدمة للأغراض الآنفة ، وعلى ما يبدو أنه على تواصل أو على الأقل على علاقة مع أحد الأجهزة النظامية التي توفر له المظلة الحمائية وتغدق عليه بالمال .

لم تكن هناك مواجهة مباشرة بين يوسيميا و بوخارين خلال البداية الأولى من الحرب ولذا كان من السهولة بمكان أن تكون الملاحة الجوية متيسرة ما بين البلدين والدخول والخروج كذلك ، لذا فإن إدخال هذا الكيان الجديد كمواطن عادي في رحلة سفر روتينية أمر متاح وطبيعي للغاية ، لكن ودرءَ لكل طارئ أو تحول في مسارات الحرب وهو أمر جد وارد ، فقد تم ترحيل نيكيتا بجواز سفر دوفاري انطلاقا من مطار عاصمتها نحو عاصمة بوسيميا .

كان نيكيتا يمانع ابتداءَ في القيام بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر وغير متلهف لها ، ولكن ما دفعه إلى الانخراط فيها هو جزالة المنافع المادية، وهذا هو الدافع الأكبر ثم لخوفه من سطوة فريدريك الذي لم ينقذ حياته هكذا هدرا بدون مقابل وبلا ثمن.

iLovePDF

ربما زادت هواجس نيكيتا أكثر بعدما سمع فريدريك أكثر من مرة بأنه تحت المراقبة الخاصة وبأنه سيدفع الثمن غاليا إن هو فكر في الهروب أو لم يقدم كل الذي طُلب ويطلب منه بالحرف الواحد .

لم يغادر نيكيتا حتى تعلم اللغة الدوفارية بشكل طليق في أحد المعاهد المتخصصة ، كما أنه ذهب بمشروع تجاري حتى يستطيع التوغل في المجتمع البوسيمي وحتى لا يظهر بمظهر الغريب الذي دخل البلاد دون هدف والحالة العامة تضج بالحرب وبالرّعب .

لقد تميّزت الفترة الأولى بتفوق بوسيميا ، ما شجع جحافل النّاس –على قلتهم- للدخول إليها ، لكن ذلك لا يعني بحال أن دخولهم سيكون مشابها لدخولهم حال وهنها وانكسارها وخسارتها فالأمر ليس سيّان ، زد على ذلك أن بلد ينتشي بالنّصر حرّي بالناس أن يزوروه أو يقيموا فيه وكذا لهم أن يمارسوا فيه أي نشاط مهما كان ، ربما هذه الأمور جعلت كل شيء يسير على أكمل وجه.

دخل نيكيتا بوسيميا بجواز سفر دوفاري تحت اسم خوان أنطونيو هيرناندیز، حيث استقر على فتح معهد لتعليم اللغات ، الذي لا يحتاج إلى كثير من المال من أجل إتمامه ، بعدها استعان بشريكة له من دولة سارابيا تدعى أنطونيلا إيسيليا لوبيز وهي امرأة تعيش في بوسيميا من مدة ولها عدة مشاريع ، وبمساعدتها لم يكن صعبا على عليه أن يجد مبنىً آخر رسمي لممارسة نشاطه الجديد.

لم تكن الخطوة الأولى صعبة حيث نشر في إحدى الجرائد إعلانا عبّر من خلاله عن رغبته في فتح معهد لتعليم اللغات ، وبأنه يريد شريكا له يساعده في الجوانب المادية والفنية ، ولقد كانت هذه بداية معرفته بأنطونيلا التي قرأت الخبر ثم اتصلت به وعبّرت له عن استعدادها للعمل معه بشروط ، قبلها فيما بعد، بعد أن

iLovePDF

تيقن – على الأقل ظاهريا- أن في المرأة هذه صفات تستحق معها التضحية ببعض الأمور التي في قلبه .

اجتمع الشريكان مجددا لوضع إعلان جديد حول حاجة المعهد لعمال من أجل تسييره والسهر على إنجاحه وهو ما تم فعلا حيث تم اختيار ثلاثة فتيات للعمل به بعد دراسة وفحص سيرهن الذاتية من بين مجموعة كبيرة من المتقدمات لشغل تلك المناصب .

كان على نيكيتا جمع قدر هائل من المعلومات عن تلك الفتيات اللاتي يشتغلن في المعهد عطفا على الطلاب الذين يزاولون الدراسة بالمعهد ناهيك عن شريكته أنطونيلا ، لمعرفة كل واحد على حدا وغربلة ثم تصنيف الأكثر أهمية فيهم ، كان عليه أيضا معرفة الحالة الاجتماعية لكل واحد بغية الوصول إلى مراكز صناعة القرار وتحويل أية معلومة مهمة لقيادته.

كانت أنطونيلا فتاة حسناء الوجه فاتنة الجمال والملامح ، تتقن عدة لغات ، ميسورة الحال ، تكره العزلة و الانطواء ، ولذا قررت خوض هذه التجربة المفيدة والتي تضاف إلى سيرتها الذاتية الغنية ، إنها تهوى مثل هذه الأنشطة التي ترى نفسها ناجحة فيها ، لا مشكل مادي لديها ، ولكنها تريد العمل مع أشخاص يحبون النشاط والعمل والحيوية ، لا تهتم كثيرا بشكل الناس الذي تتعامل معهم بقدر ما يهمها الفحوى والمضمون والصدق والأمانة.

إنها في فترة تجربة من خلالها هذا النوع من العمل وهذا النوع من الأشخاص ، في داخلها براءة طفلة صغيرة يافعة ، تكره السياسة و الحروب و النزاعات ، إنها مسالمة للغاية ، بسيطة غير متكلفة ولا متصنعة ، هدفها في الحياة مساعدة الغير وزرع الابتسامة على وجوههم.

iLovePDF

تريد فعل أي شيء من أجل إخماد نار الحروب ، وإشاعة السلم والأمن ، لذا فهي عضو فاعل في منظمة السلام في كل مكان التي تعنى بنشر ثقافة السلم ونبذ كل أنواع الحروب والنزاعات في كل انحاء العالم .

وهي منظمة معتمدة بشكل رسمي ولديها أعضاء مناهضين لسياسة حكومة بوسيميا حينها ، وبالتالي فإنها لم تعلن الولاء لها تبعا لذلك ، ثم ما انفكت حتى حلت وأصبح ناشطوها و فاعلوها محل متابعات ومضايقات ، لكن ذلك لم يدم طويلا حيث تم اعتمادها من جديد بصفة رسمية تحت مسمى جديد السلم الوردي .

اقترحت أنطونيلا على نيكيتا أن تكون له صفة العضوية داخل المنظمة باسم " مناضل سلم " تمنّع أول وهلة لكنه ومع إصرارها قبل العرض طمعا في أية امتيازات قد يجنيها أو أيه معلومات جوهرية قد يقطفها نتيجة لذلك .

في سهرة عشاء أقيمت بمقر المنظمة على شرف أعضائها الجدد تمت دعوة خوان أنطونيو هيرناندير ، قصد التعارف ومعرفة المنظمة و أعضائها القدامى عن كثب .

قدّم نيكيتا نفسه على أنه مواطن من أصول دوفارية يحب الترحال ومهوس بالمعاهد التعليمية ، كما أنه من المعجبين ببوسيميا ، و بأنه لطالما حلم بالعيش فيها ، و استثمار أي مشروع بها ، فجاءته فكرة فتح معهد كبير للغات ليقينه أن البوسيم قومٌ يحبون الاطلاع على ثقافات ولغات الشعوب الأخرى ، ولديهم هوس الانفتاح أكثر على الغير من خلال العامل الثقافي وهو ما يسهل لهم حتما وسيعبد لهم الطريق للتعامل مع الغير في شتى الميادين وكذا تيسيّر دخول بوسيميا في أي بلد بغرض الاستثمار أو نشر الإيديولوجيات والعقيدة البوسيمية كأقوى دولة في العالم .

iLovePDF

لـم يأبـه كثيـرا خـوان أنطونيـو بـالكلام الـدائر خـلال هـذا الحفـل التكريمـي أو هكـذا تظـاهر فهـذه هـي الخطـوات الأولـى لـه فـي البلـد مـوطن زوجتـه الأولـى ، والقـوة العالميـة الحاليـة ، إنـه يحـاول إدارة ظهـره خاصـة للكـلام الـذي لـه بعـد سياسـي أو عسـكري أو اسـتخباراتي يريـد أن يعطـي لهـم الانطبـاع بأنـه إنسـان بسـيط شـريف لاهـمّ لـه سـوى الشـغل والعمـل وكـذا السـهر علـى إنجـاح المشـروع الاسـتثماري الـذي يشـرف عليـه ، وأنـه لا يحبـذ كثيـرا عضـوية أيـه منظمـة مهمـا كـان عملهـا أو مهمـا كانـت طبيعتهـا ، ربمـا بهـذا الشـكل سيسـهل عليـه التغلغـل فـي المجتمـع وكسـب ود وثقـة كـل من يلتقيهم سواء في الشغل أو داخل المنظمة أو في أي مكان آخر .

ربمـا كـذلك كانـت البدايـة الأولـى تحـتم عليـه ككيـان غريـب وبنوايـا غيـر بريئـة وبتجـارب منعدمـة أو تكـاد ، أن يلتـزم الصـمت ، أن يسـمع أكثـر ممـا يـتكلم ، درءَ لكـل خطأ أو مشكل قد يقع فيه .هو في غنى عنه .

إنـه اليـوم عضـو فـي جمعيـات ومنظمـات وجماعـات متناقضـة الاسـم و الرسـم ، والمرمـى والمعنـى ، عضـو بمنظمـة السـالونية وعضـو فـي جمعيـة السـلم الـوردي و وعضـو فـي جماعـة فريـديريكو و عضـو جديـد فـي المجتمـع البوسـيمي وصـاحب معهـد للغات و مواطن بوخاريني الأصل بجوار وهوية دوغارية .

لكنـه علـى أي حـال متضـجر وقلـق إزاء كـل هـذا اللاتنـاغم ، يريـد أن يـتكلم أن يشـكو لأحـد كـل هـذا التنـاقض الصـارخ الـذي أضـحى يعيشـه بـين رفـة عـين وأخـرى ، يتـذكر ذلـك الـزمن التليـد حينمـا كـان برفقـة أسـرته الصـغيرة ، حيـث الهـدوء والعـيش بوجه واحد أو أثنين على أقصى تقدير !!.

يريـد فـى المقابـل كـذلك أن يبحـث لـه عـن شـخص يفضـفض لـه همـه ويقـص عليـه شـكواه ، لكـن مـن يكـون هـذا الشـخص ، إنـه خـائف حـائر يترقـب لا يريـد المغـامرة والمقـامرة ربمـا يقـع فـي الغلـط القاتـل ، لقـد تـيقن أنـه عليـه التريـث حتـى إيجـاد ذلـك

iLovePDF

الشخص المفقود وحينها ربما سيحكي له كل شيء دون ضوابط أو قيود ، فربما نجا وربما في حبل المشنقة ارتمى .

انتهت فصول الحفلة وعاد خوان أنطونيو إلى بيته منهكا ، بات يتقلب على فراش الجمر يمينا وشمالا يفكر في الوضع الذي آل إليه ، لكنه يفكر آن الوقت في فعل شيء ما ، إنه يفكر ربما في تفعيل مشروع يدّر عليه أرباحا طائلة .

لقد كان في سابق زمانه ، يلعب بالمال كيف يشاء ، يحصل مبالغ باهضة ، ويتبوأ مركزا اجتماعيا مرموقا ، لكنه اليوم يحس بالقهر الناتج عن فقدانه كل تلك المزايا ، يريد الآن التقبض على أية فرصة للظفر بأرباح إضافية خلسة عن علم قيادته التي إن عرفت أو حتى شعرت بالأمر سوف لن تعتقه أبدا .

في صباح اليوم الموالي ، لم يستيقظ رغم سطوع الشمس وتأخر الوقت ، حتى سمع رنين الهاتف ، نهض ورد :

_من معي ؟

_صباح الخير ، سيد خوان أنطونيو ، أنا السيدة سارة سكرتيرتك بالمعهد ، يبدو أنك نمت نوما عميقا ، أذكرك بأن لديك اليوم مجموعة مواعيد مهمة مرتبطة بشغلك داخل وخارج المعهد .

_حسنا، سارة ، ربما أتأخر قليلا .

_من الأحسن أن تصل مبكرا فالسيد روبنسون في انتظارك بقاعة الانتظار .

_أخبريه إذن بأنني على وصول.

غسل وجهه وتناول قهوته بسرعة ثم ارتدى ملابسه و وتوجه نحو الباب ، ولكن الهاتف رن مرة أخرى .

_نعم من معي .

_ أنا خوان أنطونيو هيرنادير ؟

iLovePDF

_صباح الخير ، سيد خوان ، أنا أنطونيلا

_اهلا بك ، كيف حالك؟

_يبدو أنك ، تأخرت عن العمل ؟

_نعم ، أصابني أرق ، فلم أنم إلا متأخرا .

_لقد سألت عليك في المكتب فأخبروني بعدم مجيئك .

_عفوا ، هل من خدمة أو توصية ؟

_لا ، كنت أريد أن أراك ؟

_بكل سرور، سنلتقي في المعهد ، أنا الآن متجه صوبه .

_لا ، من الأفضل أن نلتقي في مقهى روزا.

_ولكن ليس الآن .

_آه ، هل لديك موعد .

_بلى ، إن السيد روبنسون في انتظاري منذ الصباح الباكر ، إذن نلتقي على مائدة الغداء وأنا أدفع الحساب ؟

_حسنا ، إذا كان الأمر كذلك فأنا أقبل دعوتك بكل تأكيد .

_إذن موعدنا الساعة الواحدة زوالا بمطعم كلارا.

توجه خوان أنطونيو إلى مكتبه بالمعهد ، للالتقاء بضيفه ، الذي لا يعرفه ولم يلتقيه من قبل .

ولج غرفة المكتب وترجى السيد روبنسون بالدخول ، ثم أمر السكرتيرة بعدم إدخال أي شخص .

_تفضل سيد روبنسون بالجلوس ، أعتذر لك كثيرا عن تأخري عن موعدك ، يبدو أنني نمت كثيرا ولم استفق إلا متأخرا.

iLovePDF

_لا عليك سيد خوان أنطونيو لا أهتم كثيرا بالأمور الرسمية ، أنا إنسان بسيط للغاية ، فلا تكاليف بيننا أبدا.

_هذا من نبلك وكرم أخلاقك سيد روبنسون.

_أعلم بأنك لا تعرفني ولم يسبق لنا أن التقينا من قبل ، فهذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها إلى معهدك ، وربما هي فرصة رائعة لأهنئك بهذا المولود الجديد الذي يعبر عن أصالتك وحسن ذوقك ، نحن بحاجة ماسة لمثل هذه المشاريع الرّاقية التي تهتم بالعلم ونشر الوعي ومكافحة الجهل والتخلف .

_أخجلتم تواضعنا سيدي ، شرف لي أن أسمع منك كل هذا المديح والإطراء ، وشرف لي أن أعمل في هذا البلد الرائع والمتحضر والذي سيسود العالم بأسره .

_أنا أيضا أحب العمل في هذا البلد الذي أعتبره مثل بلدي تماما .

_آه ، إذن أنت لست بوسيميا.

_نعم ، أنا من أصول بيتروفيامية.

_رائع، إذن نحن ضيوف هذا البلد ، جميل أن يعدد المرء معارفه من بلدان مختلفة ، بكل تأكيد هذا ثراء آخر يضاف إلى الأشياء الجميلة التي صادفها وتعلمها الإنسان طوال حياته.

_أنا أستاذ اللغة والأدب البيتروفيامي ، وتم تعييني منذ مدة وجيزة هنا ، كأستاذ مشارك بمعهدكم ، لكنني أدرس بجامعة بودون .

_أه ، أنا سعيد بمعرفتك سيدي ، أعذرني لم أتعرف عليك منذ البداية .

_لا مشكل أبدا سيد خوان أنطونيو ، فقط وددت أن أقوم بزيارة مجاملة لكم ، أعذرني ربما أخذت من وقتكم الشيء الكثير.

_لا ، أبدا سيد روبنسون ، كنت سعيدا بلقياكم .

iLovePDF

انصـرف الضـيف ، وبقـي خـوان أنطونيـو ، متـوجس خيفـةَ مـن هـذه الزيـارة والهـدف مـن ورائهـا ، لقـد تـم تنصـيب كـل الأسـاتذة خـلال حفـل أقـيم مـؤخرا علـى شـرفهم ، فلمـا هـذه الزيـارة ، ومـا الهـدف منهـا ؟ بـل لمـاذا لـم يوضـح بجـلاء أسـباب قيامه بها ، إنه أمر مثير للحيرة ، حتى نظراته كانت غريبة .

أخـذ خـوان أنطونيـو نفسـا عميقـا ، وهـو علـى يقـين بـأن عليـه النظـر دائمـا بعـين الشك والريبة في كل شخص يلتقيه هنا أو بالخارج .

قـد يكـون ذلـك الأمـر طبيعيـا إذا تـم النظـر إليـه فـي سـياقه الأصـلي ، فهـو علـى كـل حـال يلـبس الآن عبـاءة الجاسـوس ولـيس مـدير معهـد لتلقـين وتعلـيم الثقافـات واللغـات ، ثـم إن النـاس مـن المنطقـي أن ينظـروا إليـه هكـذا فهـم لا يعلمـون حقيقتـه التـي لا يعلمها إلا هو.

لكـن مـاذا لـو علـم أحـدهم الحقيقـة سـتكون النهايـة لا محالـة وهـو لايـزال فـي بدايـة المشوار ، بل إنه لم ينطلق بعد ، ولم يحصل على أية مكافآت أو تحفيزات مالية.

أحـس لأول مـرة بحياتـه أنـه لـيس بالشـجاع بـل إن جبنـاً كبيـرا يسـكنه ويشـل قدرتـه علـى التفكيـر وعلـى التصـرف ، لقـد أثـرت فيـه تلـك الطعنـة الغـادرة التـي تلقاهـا مـن جوزيـف ذات ليلـة دهمـاء ، ربمـا قضـت علـى كثيـر مـن شـجاعته وتهـوره وزادت فـي كمية مخاوفه وهواجسه .

قـرر بعـدما غـرق فـي أتـون مـن التفكيـر، أن يتجلـد بـالقوة والمواجهـة، فإمـا أن يكون وإما أن لا يكون، هذا منطق ساحات الوغى التي لا ترحم .

لطالمـا شـهدت فتـرات الحـروب الكبـرى انتشـار الجاسوسـية بشـكل لافـت للنظـر ، فهـي أحـد أبـرز معالمهـا الكبـرى و أدواتهـا الفاعلـة و أسـلحتها الفتاكـة ولـذلك عمـدت الـدول الكبـرى ثـم نحـت منحاهـا الكيانـات الصـغرى علـى إيـلاء عنايـة بالغـة بهـذا السلاح الفعال الذي يراهن عليه الساسة ورجال المخابرات في كل مكان .

iLovePDF

فـي مجتمعـات الحـرب تتكـاثر العمليـات الاسـتخباراتية بشـكل كبيـر ، قـد يتحـول المجتمع برمته إلى جواسيس والمنازل والشوارع إلى مخابر تنتج أو تأوي أولئك.

فـي الحـروب كمـا فـي الأزمـات تتحـول الـدول إلـى أمـاكن مرعبـة وسـاحات مفزعـة ، عليـك أن لا تـتكلم كثيـرا وأن لا تتحـاور كثيـرا وأن تـدعي الجهـل بالأشـياء ، فقـد تكـون أمـام جاسـوس فـي ثـوب رجـل ديـن أو فـي ثـوب تـاجر أو فـي ثـوب عاطـل، وإن فعلـت ستدفع بلا هوادة ثمن كل حرف نطقته وأحيانا لم تنطقه.

كـان خـوان أنطونيـو بـذلك التوصـيف ينظـر إلـى كـل النـاس نظـرة مريبـة نظـرة الـذي يتـأبط شـرا بـه ، وبعضـهم كـذلك ممـن يعلمـون أن الوقـت وقـت جاسوسـية وتناقـل معلومات وبيانات.

سـتيفي أسـتاذة الآداب واللغـة السـرمادية ، زوجهـا يعمـل فـي الجـيش البوسـيمي برتبـة ضـابط فـي سـلاح البـر ، إنسـانة ثرثـارة لا تكـاد تصـمت ، تـتكلم فـي كـل شـيء، وتفهم كل شيء ، نمامة و مزاجية .

أصـبحت كثيـرة التـردد علـى مكتـب خـوان أنطونيـو ، الـذي يعاملهـا بلطـف ، رغـم أن وجودهـا أمـر إيجـابي بالنسـبة لـه إلا أن الكـلام سـيكثر عليهمـا ، وهـو لا يريـد بحـال مـن الأحـوال أن يلفـت النظـر حولـه ، أي نعـم يريـد أن يظهـر بمظهـر زيـر النسـاء والعربيـد الـذي لا يصـحو مـن سـكره حتـى يشـتت الأفكـار ويعطـي الانطبـاع للغيـر بـأن أسـلوبه فـي الحيـاة هـو هكـذا ولا يأبـه بـالمرة لأمـور السياسـة والمخـابرات والعسـكر ، ولكنـه مقابـل ذلـك لا يعلـم إن كـان كلامهـا موثقـا أم هـو مـن قبـل الرغـو و اللغـو ، فهـو لا يريد إرسال معلومات خاطئة لقيادته .

لـم يكـن عليـه عنـد سـماعه أخبـارا مـن سـتيفي سـوى التريـث إلـى حـين ، إلـى أن يتأكد من صدقها .

iLovePDF

لـم تكـن معلوماتهـا علـى أعلـى مسـتوىَ مـن الوجاهـة لكـن بقيـت معلومـات مـن الأهميـة بمكـان سـماعها وإبلاغهـا ، لقـد أثبتـت الأيـام أن مـا تنقلـه مـن أخبـار صـحيح ، لكـن بقـى علـى خـوان أنطونيـو معرفـة هـذه الإنسـانة هـل هـي أسـتاذة عاديـة ؟ أم تراهـا طعم أرسل للإيقاع به ، واصطياده كما تصطاد فئران المجاري ؟.

عقـد العـزم ذات مـرة علـى تنظـيم حفلـة علـى شـرف عـائلات الأسـاتذة و المـوظفين الـذين يشـتغلون داخـل المعهـد، وكـان الغـرض مـن وراء ذلـك معرفـة كـل التفاصـيل و المعلومـات عـن أولئـك الأفـراد ، ربمـا يجـد مـنهم مـن يسـتلُّ منـه المعلومـات بطريقـة أسـرع وأضـمن ، إنـه لا يريـد بالنهايـة أن تـأتي المعلومـة عنـده ، بـل أن يسـعى كـذلك بنفسه للحصول عليها .

اسـتغل عطلـة نهايـة الأسـبوع ، للـم شـمل تلـك العـائلات التـي استحسـنت الفكـرة وعبرت بعدها عن جميل امتنانها للسيد أنطونيو على صنيعه هذا .

كـان مـن ضـمن العـائلات الحاضـرة ، عائلـة الأسـتاذ شـرويدر الـذي لـم يكمـل مراسـيم الحفـل بعـد أن تـم إبلاغـه بـأن حالـة ابـن أخيـه فـي خطـر وهـو يرقـد فـي العنايـة المركـزة بالمستشـفى ، كـان عليـه المغـادرة فـورا و ورأسـا نحـو المشـفى وهـو يطلـب الصفح عن عدم إكماله الجلسـة

انتهـى الحفـل وكـان حـري بـأنطونيو القيـام بزيـارة مجاملـة للمـريض ، حيـث وجـده فـي حالـة حرجـة جـدا وبجانبـه كـل أفـراد العائلـة بمـا فـيهم السـيد شـرويدر ، وعنـد الانصـراف وقعـت عينـه علـى فتـاة رائعـة التقاسـيم ، نظـر إليهـا فـإذا هـي فـي حالـة حـزن وقلق ، اقترب منها وقال :

_لا أعلـم مـا صـلة القرابـة بينـك وبـين المـريض ، ولكننـي أتمنـى لـه الشـفاء ، وأرجوا لكم راحة البال و الطمأنينة !! .

_شكرا سيدي، هذا لطف منك ، وجميل لا ينس .

iLovePDF

تنـاول خـوان أنطونيـو ورقـة صـغيرة مـن جيـب معطفـه الـداخلي ، وناولهـا الفتـاة وهو يترجاها بالقول :

_هـذه بطاقـة فيهـا إسـمي وعنـواني ورقـم هـاتفي إن احتجـتم أي شـيء أنـا فـي خدمتكم .

_لا نريد أن نتعبك معنا سيدي.

_بالعكس ، لا يوجد أي تعب سأكون سعيدا لاتصالكم في أية لحظة .

غـادر خـوان أنطونيـو المكـان ، وظلـت صـورة الفتـاة تـدور بخيالـه ، لا يعلـم هـل هـو معجـب بهـا أم محـب لهـا ، أم يريـد منهـا أن تكـون معـه فـي المعهـد تسـاعده فـي الشـغل ، أم يحس بأن لها معارف قد تساعده في عمله التجسسي ؟

انتظـر أيامـا عـدة وهـو ينتظـر مكالمـة منهـا أو زيـارة ، لكـن لا شـيء مـن ذلـك حصـل ، ظـل يسـتقبل فـي مكتبـه سـتيفي التـي أصـبحت مدمنـة زيـارات وكـلام بحيـث لا تكـاد تتوقـف ، فكـر مليـا فـي فصـلها مـن المعهـد أو منعهـا تمامـا مـن الإتيـان إليـه إلا عنـد الضرورة الملحة وفى ما تعلق فقط بجانب الشغل .

لقـد صـار الكـل يـتكلم عنهمـا وربمـا تنـاهي إلـى مسـامع زوجهـا الأمـر ، كمـا أنـه صـار يسـمع كمـا هـائلا مـن المعلومـات دون أن يتصـرف بشـيء ، إنـه فـي حالـة لا تواصل مع القيادة.

لقـد كـان يقـول فـي قـرارة نفسـه كيـف لشـخص بسـيط مثلـي أن يعتمـد عليـه فـي عمـل جاسوسـي مثـل هـذا ، إنـه هـراء كبيـر، لا يعقـل كيـف لدولـة تملـك أكبـر جهـاز مخـابرات فـي العـالم أن تـدس شخصـا مثلـي بواسـطة فريـديرك فـي أقـوى دولـة حاليـا بالعـالم ، أنـا لا أقدم شيئا .

لكنـه تـذكر فـي غمـرة الكـلام أن زعيمـه قـال لـه بـالحرف الواحـد ذات يـوم (اسـمع يـا نيكيتـا أنـت لـم تفعـل شـيئا لحـد الآن ، ولـن تفعلـه إلـى وقـت قريـب ، كـل الـذي سـتقوم

iLovePDF

بعملـه قريبـا مـا هـو إلا تـدريب لمـا هـو قـادم إننـا نحاجـك مـع بعـض الرجـال لمعركـة حضـارات وأديـان... وليسـت معركـة أبـدان و أوطـان ، ولمـا نصـل إلـى الهـدف المنشـود ، لا مشـكلة بعـدها فـي تحصـيل المـال الـذي يبقـى هـدفا معلميـا وأساسـيا بالنسـبة لنـا) .

إن إدخـال فريـدريك لنيكيتـا إلـى منظمـة السـولوجرانيا ، و إرغامـه علـى التـدين بالديانـة اللوفاريـة والمحافظـة علـى طقوسـها ، ونسـيان كـل مالـه علاقـة بالديانـة البالوماريـة ، وتحـذيره لـه مـن مغبـة التنـازل عـن تعاليمهـا أو الخـروج عـن المنظمـة أو كشف بعض أسرارها ، كل هذا زاد في رعب خوان أنطونيو فما هو قادم .

الآن صـار يـدرك جيـدا أن عليـه عـدم التنـازل أو بـالأحرى تطبيـق كـل أوامـر فريـديريك ، ربمـا لـن ينـزل عليـه أيـة عقوبـة إذا لـم يقـم بتقـديم معلومـات موثقـة خـلال مكوثـه ببوسـيميا وعملـه كجاسـوس ، ولكـن عليـه الاسـتعداد للملحمـة الكبـرى التـي لا يعلم أين ومتى وكيف ستكون ؟

رجـع خـوان أنطونيـو بتفكيـره إلـى الفتـاة الشـابة أخـت المـريض يوهـان وكيـف سيتعامل معها في حال مجيئها إليه أو الذهاب إليها أو الالتقاء ولو صدفة بها .

إن كـان الـذي بـه عشـقا أو إعجابـا فهـذا أمـر عجيـب ، ولكـن كيـف لأحـد أن يشـعر بمثـل تلـك المشـاعر إزاء أنثـى تـأتي فـي مقـام ابنتـه ، إنـه أمـر فظيـع ، وإن كانـت فتـاة يسـتفاد منهـا بـأي نـوع مـن المعلومـات فهـذا أمـر ممتـاز ، وإن جمعـت مـا بينهمـا فهـو الذي يتمناه .

لـم يسـتطيع التحمـل أكثـر مـن هـذا ، اشـترى باقـة ورود مختلـف ألوانهـا ، ثـم توجـه مباشـرة إلـى حيـث يرقـد يوهـان بالمستشـفى ، بحـث عـن الغرفـة وأعـاد البحـث ، يبـدو أنـه نسـي مكانهـا نـزل إلـى حيـث مكتـب الاسـتقبال والتوجيـه ، حيـث سـأل إحـدى العاملات عنه ، نظرت إليه ، ثم سكتت برهة زمن وأردفت تقول :

iLovePDF

_يؤسفني سيدي أن أخبركم بأن المريض يوهان قد فارق الحياة .

_ماذا تقولين ، مات ؟!.

_نعم ، سيدي ، أنه أمر محزن .

_هلا ، أسديت لي معروفا آنستي .

_بكل سرور ، تفضل سيدي .

_أريد عنوان بيت الراحل ، من الواجب على أن أقدم لهم واجب العزاء .

تناولت الفتاة قطعة ورقية وقلما ثم كتبت العنوان وقدمته لخوان .

_ممتن لك سيدتي ، آسف على إزعاجك.

توجه خوان أنطونيو مباشرة إلى بيت الراحل يوهان ، تقدم بضع خطوات نحو الأمام فوجد نفسه أمام ثكنة عسكرية على أبوابها حراس وفى زواياها أبراج مراقبة ، اندفع نحو الباب الرئيس ثم ألقى التحية على أحد الحراس :

_طبت صباحا سيدي .

_نعم تفضل ، ماذا تريد ؟

_هل يسكن هنا السيد يورغان كوهلر ؟

_نعم ، ماذا تريد منه؟ وهل تعرفه ؟

_لا أعرفه معرفة شخصية.

إذن لا يمكنك الدخول، لدينا تعليمات صارمة بشأن دخول وخروج الغرباء.

_ولكن سيدي ، أنا لست بصدد زيارة مجاملة أو تعارف ، أنا هنا من أجل أن أقدم واجب العزاء للأسرة في فقدهم ابنهم السيد يوهان كوهلر .

_ولكن وقت العزاء انتهى ، أين كنت كل هذا الوقت ؟

_لم أكن أعلم ، لقد علمت لتوي و هذه طريقي من المستشفى التي كان يرقد فيها الراحل _حسنا ، انتظر هنا لحظة .

iLovePDF

دخل الحارس ، وماهي إلا لحظات بسيطة حتى عاد وهو يقول :

_تفضل سيدي بالدخول ، يمكنك الآن الذهاب إلى بيت السيد كوهلر ، قبل أن تذهب يرجى منك ترك وثيقة هويتك .

_بكل سرور سيدي .

أشار الحارس بيده إلى حيث يسكن سيد كوهلر ، توجه خوان أنطونيو إلى الباب طارقا إياه بلطف ، حيث سمع أحدهم يستفسره :

_من معي ؟

_أنا السيد خوان أنطونيو ، ومعي ترخيص بالدخول من الحارس الذي بالباب ، ومعي بطاقة زائر .

فتح الخادم الباب قائلا :

_تفضل سيدي بالدخول ، أنت تبحث عن السيد يورغان ؟

_بكل تأكيد .

_تفضل معي ، لأخذك إلى حيث يوجد.

سار خوان بضع أمتار ليصل إلى قاعة كبيرة ، وقد جلس فيها السيد يورغان ، رفقة أسرته ، انحنى خوان قليلا ليعبر عن حزنه على المصاب وكذلك كنوع من التحية على أفراد العائلة وهو يقول :

_طاب يومكم بكل خير سادتي الأفاضل .

_تفضل أيها السيد ، هل يمكن أن أعرف من أنت وماذا تريد ؟

_أنا خوان أنطونيو القائم على معهد اللغات و الثقافات بالمدينة .

_نعم ، تشرفت بك سيد خوان .

_في الحقيقة ، هذه ليست المرة الأولى التي نلتقي فيها ، لقد سبق لي زيارتكم بالمستشفى ، الأيام الماضية ، يؤسفني أن السيد يوهان قد فارق الحياة .

iLovePDF

_لما أنت واقف ، تفضل بالجلوس ؟

_شكرا لك سيدي ، هذا كرم منك .

_ولكن قل لي ، كيف تعرف يوهان ؟

_لا أبدا ، لا أعرفه ، في الحقيقة ، أعرفكم عن طريق السيد شرويدر الأستاذ بالمعهد الذي أشرف عليه .

_آه ، إذن أنت و شرويدر تشتغلان في نفس المكان .

_نعم ، نظمت حفلة على شرف السادة الأساتذة و الموظفين ، وما إن بدأت مراسم الحفل حتى جاءه اتصال فحواه أن الراحل يوهان مريض للغاية ، وتبعا لذلك ارتأيت أنه من اللباقة القيام بزيارة لكم للاطمئنان عليه .

كان خوان أنطونيو يتكلم وهو يطيل النظر في كل زوايا المكان ، أطال الجلوس من حيث لا يشعر أو بالأحرى من حيث لا يتمنى ولا يريد ، كان يمني النفس بالالتقاء بالفتاة التي كحل بها عينه هناك بالمستشفى ، انتظر و انتظر لكن دون جدوى .

قرر بالنهاية وحفاظا على ماء الوجه الانصراف من المكان بعد كل هذه المدة ، طلب من السيد يورغان الإذن بالخروج :

_شكرا لك سيدي على كرم الاستقبال ، لابد لي من الانصراف.

_يسعدني مجيئك ، إن احتجت أي شيء ستجدني في الخدمة .

_هذا نبل منك سيدي ، إلى اللقاء .

وبينما هو يهم بالخروج ، دخلت الفتاة ، فتسارعت نبضات قلبه العليل ، ثم بادرها بالكلام :

_أهلا بك آنستي .

_أهلا بك سيدي ، عفوا لم أعرفك .

iLovePDF

_أنـا خـوان انطونيـو ، مـدير معهـد اللغـات والثقافـات ، التقينـا بالمستشـفى عنـد زيارتي للراحل يوهان أخوك.

_عفوا سيدي ، لم أتذكر لقد كانت أياما عصيبة علينا جميعا ، ربما نسيت .

_لا عليك آنستي .

أدخـل خـوان يـده فـي جيبـه للبحـث عـن بطاقـة مـن بطاقاتـه التـي بهـا معلوماتـه ، لكنـه لـم يجـدها، يبـدو أنهـا نضـبت ، يـاللهول...لم يكـن يـدري أن سـيناريو مثـل هـذا يمكن أن يحدث معه ، لكنه عزّى نفسه بالقول :

_ إن كانـت تريـدني فهـي حتمـا تعلـم أننـي أعمـل مـديرا للمعهـد وهـذا مـا أكـده غـداة انصرافه :

_إن احتجـت أي شـيء آنسـتي أنـت تعلمـين مكـان عملـي ، سـيكون مـن الرائـع تشريفك لنا في أي وقت تريدين .

_سـأفعل إن كـان لـدي وقـت أو إن احتجـت مـنكم شـيئا، ولكـن لا أعـدك بشـيء سيدي .

_أعـذرني ، لقـد سـرقنا الكـلام ، أنـا هنـا اليـوم لأداء واجـب العـزاء فـي فقيـدكم السـيد يوهان ، أرجو لكم الصبر .

_شكرا سيدي هذا لطف منك .

_عليّ بالانصراف آنستي ، إلى اللقاء .

غـادر خـوان أنطونيـو بيـت السـيد يورغـان ، ومشـاعر متناقضـة تختلجـه لقـد تأكـد الآن بأنـه قـد أغـرم فعـلا بالفتـاة ، وبأنـه أمـام عائلـة يعمـل الوالـد فـي رتبـة حساسـة بـالجيش ، وبـأن المعلومـات هـو مـن سـعى و سيسـعى للحصـول عليهـا ولـيس العكـس مثلمـا حـدث مـع سـتيفي ، فالفتـاة ابنـة السـيد يورغـان يبـدو أنهـا غيـر مهتمـة بـه و

iLovePDF

نسيت أصلا أنها التقته ذات يوم ، وبالتالي فهي فرصة رائعة يبدو أنه صار الآن أمامها وعليه التّقبض عليها .

لكن هل يستطيع أن يتحصل على معلومات هامة من فتاة يحبها ، ربما يريد أن يتزوج منها ، إن فتاة مثل هذه الفتاة إن حصل وأن ضعف أمامها أو كانت له زوجة أو عشيقة فإن الأمر سيكون لا محالة صعب بل ربما هي من ستأخذه إلى حبل المشنقة بدون شفقة ، وحتى وإن أعتقته فيجب عدم نسيان أن والدها رقم مهم فى الجيش أو هكذا يبدو .

قرر خون أنطونيو الانتظار مرة أخرى إلى حين ، إلى أن تنضج افكاره إزاء هذا الموضوع ، فربما تأتيه فرصة الالتقاء مرة أخرى بالفتاة فيأتي منها بالمعلومة مباشرة وحينها عليه قتل مشاعره تجاهها أو ربما تأتي فرصة أفضل منها ويجب عليه عدم تفويتها ، وفى كل الحالات يبدو أن الرؤية تزداد وضوحا أمامه يوما عن يوم بل إنه يستطيع المفاضلة أو الجمع بين الكل ولكن بحذر شديد .

في أحد الأيام الماطرة الباردة ، فضل خوان أنطونيو التأخر عن موعد الالتحاق بعمله واستغلال ذلك الوقت في السير مترجلا في شوارع المدينة ، التي تتسم بالحركة وبالهدوء، ، لا شيء يعطي الانطباع بأنك في بلد يعيش حالة حرب .

لم تكن الأراضي البوسيمية حينها مسرحا لفصول تلك الحرب اللعينة ، بل كانت تلك الفصول تدور معاركها الطاحنة خارجا ، فالجيش البوسيمي له من المقدرات ما من شأنه أن ينقل المعارك إلى أي أرض يشاء في الزمن الذي يريد بما يمتلكه من عدة وعتاد ، إنه يسابق الزمن لالتهام الجميع ونشر فلسفته وعقيدته التي يتبناها وبسطها بالحسنى أو بالخشنى .

iLovePDF

ربما تسلّل كثير من الغرور والكبر والخيلاء لدى بعضاً من قادته وجنوده وحتى قواعده الشعبية بأنه الجيش الجرار الكانس الذي لا يصهر ولا يقهر بل ولا يشق له نار ولا غبار ، إن مشاعر مثل هذه ، مشاعر أضحت مع الوقت واقعا فعليا بعد توغله في أعماق إيستراادا و انطلاقه نحو بوخارين، الدب الذي وقف سدا منيعا طوال فترات زمنية عديدة .

ظل خوان أنطونيو يطلق العنان لتفكيره في كل هذه الأحداث المهيبة ، إنه يدرك الآن تمام الإدراك أن ليس عليه الحزن على بوخارين بلده . ولا يجب عليه الفرح لبوسيميا لأنها ليست موطنه ولا مسقط رأسه ، ولا يجب عليه التفكير بالدين البالوماري لأنه تخلى عنه لصالح الديانة اللوفارية التي أصبحت ثالث ديانة يدخل إليها في حياته ، ولن ينسى أبدا أن دينه ودين آبائه هو الرّاسيّة !! ، إنه يضحك عندما يتذكر كل هذا التلاعب بالأديان التي يغيرها كما يغير المرء لباسه !! وفقا لمقتضيات المصلحة والحاجة.

إنه يدرك أكثر من أي وقت مضى أن كل تلك الأديان لم توصله يوما إلى قناعة ولا إلى سبيل و لا إلى حقيقة ولا إلى خلاص بل إلى مزيد من الحيرة والتيهان .

وصل خوان أنطونيو إلى حيث مكتبه بالمعهد ، والأسئلة لا تزال تتزاحم في رأسه حيث لا إجابات واضحة بل فرضيات عدّة ليس إلا .

إن المعهد يجب أن يستمر ومن أجل ذلك لابد من أموال وعليه إذن الاتصال بالقيادة حتى تضخ له مزيدا من السيولة ، وإلا فإنه لا يستطيع المواصلة ، لكن كيف يتصل بها ؟ وهو لحد الآن لم يزودها بأية معلومة مهمة منذ أن بدأ عمله ، هم أصحاب رؤوس ناشفة جافة ، لا يمنحون مالا هكذا دون مقابل ، ثم إنهم يحاسبون عن كل شيء فعله ولم يفعله ، ولذا كان حري به توثيق معلومات مهمة و إيصالها لهم والاستفادة من مقابل ذلك .

iLovePDF

انتشرت الحرب انتشار النار في الهشيم واحتلت بوسيميا استرادا ثم تحركت لالتهام المزيد من الأراضي الأخرى المجاورة كانت هذه هي البداية لسلسلة من الهجمات التي كان يريد من خلالها البوسيميون احتلال العالم وبسط نفوذهم عليه مهما كلف الأمر ، إنها سياسة حرب شعواء أعلنها أولئك القادة الذين لا يهمهم وصف الناس إياهم بالهمجيين.

لم يكن اندفاعهم من فراغ ، لقد حز في أنفسهم انتقاما قديما ، بعد خسارتهم الحرب الأولى و توقيعهم معاهدات جائرة أفضت لهم إلى خسارة الكثير من الأراضي التي كانت تقع تحت سلطتهم وكذا إلى تغريمهم بغرامات خيالية .

السبب أنهم من كانوا سببا في اشتعال الحرب واتقادها رفقة حلفائهم ، إن نزعة الحرب واللاسلم لدى البوسيمين آنذاك لم تأت هكذا من فراغ ومقتهم للّوفار كذلك لم يكن هكذا بدون داع على ما يبدو .

مرت أيام ولا جديد عند خوان أنطونيو ، سوى ثرثارات ستيفي التي لا تنته ، ربما بدأ يفقد الأمل في زيارة تمناها من الفتاة إياها ، لكنه لم يتصور أن مندوبا من القيادة سيزوره بمكتبه في زيارة مفاجئة لم يكن يتوقعها .

أمر السكرتيرة بعدم إدخال أي شخص مهما كان ، وحاول التكلم مع المندوب بشكل سرّي درء لكل شك قد يثار ، لكن السكرتيرة في ما يبدو انصرفت إلى دورة المياه تاركة أنطونيلا بالمكتب .

وفي غمرة النّقاش تسربت إلى أذنها عبارة(أنت لا تعمل بل تأكل وتنام وتلهو مع النّساء وهذا أمرٌ ينذر بنهايتك ، لا تنس بأنك جاسوسا ولست مديرا!!)

ارتعبت من هول ما سمعت ، لكنها بقيت مكانها إلى أن عادت السكرتيرة.

تظاهرت أنطونيلا بعدم وجود شيء ملفت للنظر ، وكأنها تريد أن لا تسمع السكرتيرة ما يدور من كلام بالداخل .

iLovePDF

لـم يكـن مـن بـد أمـام خـوان أنطونيـو سـوى امتصـاص غضـب المنـدوب الـذي يبـدو وأنــه هـدده بإرجاعـه وحرمانــه مـن كـل حقوقـه ومحاسـبته ، لكـن الأول ترجـاه واعـداً إياه بأنه سيفعل المستحيل من أجل أن يكون عند حسن الظن .

تناول المندوب حزمة مال وقذفها في وجه خوان قائلا :

_هـذا المـال للمعهـد ولـيس لـك ، عليـك بترشـيد النفقـات ، وعليـك بالإسـراع فـي تزويدنا بالمعلومات ، تم همّ بالخروج .

كـان علـى أنطـونيلا وهـي شـريكته بالمعهـد أن تـدخل إلـى حيـث مكتـب خـوان أنطونيو وتفهم منه كل شيء ؟

_مالك خوان أنطونيو ، هل من خطب ؟

_لا، لا شيء.

_ولكن يبدو عليك بعض الاضطراب و التوتر ؟

_ربما لأنني لم أنم جيدا البارحة ، لقد سهرت كثيرا ثم أصابني أرق.

_لا ، لم تفهم قصدي ؟

_كيف ؟

_خـوان أنطونيـو ، أنـا وأنـت شـركاء فـي هـذا المعهـد ، وبيننـا ميثـاق عمـل وشـرف ، ولقد تعاهدنا على أن لا نخبئ عن بعضنا شيئا مهما كان .

_حبذا ، لو تكلمت بصوت مرتفع ؟

_أنـت تتظـاهر بعـدم فهمـي ، ولكنـك تفهمنـي جيـدا ، مـا رأيـك أن نلتقـي اليـوم علـى مائدة عشاء عندي بالبيت ؟

_لا أستطيع رفض طلب لك ، ولكنني الليلة على موعد آخر .

_لا، عليك أن تعتذر على الذهاب إليه ، علينا أن نتناقش .

_كما تريدين.

iLovePDF

دار بخلد خوان أنطونيو العديد من الحوارات الذاتية ، إنه مرتبك من كلام المندوب وحائر في كيفية التصرف إزاء ذلك ، كما أن أنطونيلا زادت من حجم مخاوفه إلى الدرجة القصوى ، ربما عرفت بكافة تفاصيل القصة ، يالورطة إن حدث أمر مثل هذا ستصبح هذه هي ساعاته الأخيرة ببوسيميا بل بالحياة كلها .

كان عليه التظاهر بالهدوء و بالثقة بالنفس وبأن لا شيء البتة يدعوا إلى الخوف والارتعاش لكن الأمر لم يكن كما يرغب و يريد ، مرت عليه ساعات النهار المتبقية كأنها مائة عام أو يزيد .

ولما حلّ المساء استجمع بعضه الذي تفكك إلى أشلاء ، لبس ثيابا جديدة ووضع عطرا كرومافيّا فاخرا وكأن الذي ينقصه أو يرد هدوئه هو ذاك وليس أمر آخراَ .

توجه إلى بيت شريكته بالعمل فوجد ترحابا منقطع النظير فزادت هواجسه من مرام ذلك الاستقبال الأسطوري وكأنه بطل قومي عائد من غزوة أو حرب ضروس .

قامت أنطونيلا بإيصاله إلى غرفة الاستقبال حيث نصبت طاولة بها شموع و أطباق و صحون ممتلئة بكل ما لذ وطاب ، إنها تترجاه بالجلوس :

_تفضل خوان أنطونيو ، أنت في منزلك لا داعي للرسميات .

_ممتن لك على هذه الدعوة .

_ولكن ما الذي حدث معك لقد وصلت متأخرا جدا، خلت أنك مشغول أو أنك لا تود الحضور ؟

_لا ، لا شيء من ذلك ، توقفت السيارة فجأة فعملت على إصلاحها ؟!.

_لا عليك ، يقولون أن تصل متأخرا خير من أن لا تصل أبدا .

iLovePDF

كانت أنطونيلا تأكل بنهم ، بينما خوان أنطونيو لا تكاد تصل يده البتة إلى الطعام ، ظلت تحدق يه مستغربة من أمر كهذا ؟

_ألم يعجبك الطبخ السّارابي ؟.

_لا أبدا ، لقد تناولت غداء دسما ولهذا أشعر بالتخمة وبالثقل.

_لا عليك في المرة القادمة سوف أطبخ لك من المطبخ البوخاريني !!؟.

سقط كوب الماء الذي كان يده ، وتسارعت نبضات قلبه ، وتعرق وجهه ، واحمرت خدوده ، وتلعثم لسانه ، ورقصت فرائصه رقصا ، بل إنه يكاد يتوقف عن النطق ، سكتت أنطونيلا برهة زمن ثم أردفت تقول :

_أنت اليوم في حالة غير طبيعية من كلام المندوب الذي جاءك إلى المكتب، لقد علمت كل شيء.

_ماذا تقولين ، جاسوسة أنتِ تتنصتين علي ؟

_لست كذلك ، لقد كانت أصواتكما عالية للغاية ، تُسمِع الذي به صممٌ ، عليك بشكري وشكر الظروف حيث لم تسمع السكرتيرة تحاوركما ، وإلا حلت اللعنة عليك ولتم إيداعك السجن تمهيدا لإعدامك .ولمزقوك كل ممزق ، لقد ذهبت تلك اللحظة إلى دورة المياه وتركت باب المكتب مفتوحا لوحده أنا لست جاسوسة ، بل أنت من تحمل هذه الصفة خوان أنطونيو .

_ولكن ، ماذا تقولين ، أنا ؟.

_أعلم بأنك في حالة دهشة وصدمة ، لكنني أعدك بأنني على العهد باقية، لن أخبر أحدا بكل تأكيد ، أنا إنسانة سارابية ولا علاقة لي بما يجري في غير بلدي ولا مصلحة لي لا من قريب ولا من بعيد ، لست على دينهم ولا على هويتهم ولا على لغتهم ، أنا هنا من أجل العمل وإيصال رسالة العلم والمعرفة ، أعلم أن الحرب التي تدور رحاها الآن لم ولن يستفيد منها أحد سوى الساسة و رجال المال

iLovePDF

و الأعمال وتجار الدم ، كالبعوض هم ينتشرون حول المستنقعات ، يتكاثرون بشكل مقزز ، يصطادون في المياه العكرة الملوثة ، لقد عانينا كثيرا من مآسي وويلات الحروب التي راح ضحيتها ملايين البشر من دون ذنب سوى لأنهم يريدون العيش فى حرية وسلام .

_أريد أن أصدق كلامك، ولكن أمر مثل هذا صعب أن يستوعب ، إنك تحملين نزعة إنسانية رهيبة وكتلة من المشاعر الغريبة ، على كل حال ما هو مقابل كل هذا ، ما هو الثمن الذي وجب علي دفعه لشراء صمتك ؟ أريد أن أذهب مرتاحا من عندك؟.

_لا ثمن لذلك ، أنا أحبك خوان أنطونيو ومن يحب لا يمكنه تحت أي ظرف أن يخدع أو يغدر أبدا ، أحببت فيك قوة الشخصية و الكاريزما ، أحببت فيك الكفاح من أجل بلوغ مرامك ، أحببتك شكلا و مضمونا ، ولكنني صدمت لما عرفت حقيقتك وحقيقة وجودك هنا ، أنا أنصحك بالتزام الحذر أو مغادرة بوسيميا والفرار بجلدك قد تنكشف فى أية لحظة ، إن سمحت لي بسؤال ؟

_نعم ، تفضلي ، سأجيبك إن كان ذلك ممكنا .

_أنا مندهشة من كل الذي تعلمه ، كل هذه التضحيات الجسام ، كل هذا الألم و الوجع و الخوف ، هذه الغربة و الاغتراب عن الأهل والوطن عن عالمك الذي كبرت و تربيت فيه ، من أجل ماذا ؟

_حتى أكون صادقا معك ، من أجل المال والجاه ، والانتصار للدين الذي إليه أنتمي .

_وليكن ذلك ، إذن هذا الدين يحثكم على الاقتتال من أجل المال ولو بقتل الأبرياء ، يحضكم على سبي النساء ووأد الأطفال وحرق الأخضر واليابس والحرث والنسل ، قل لي عن ديانتك هل أنت مقتنع بما تفعل ؟

iLovePDF

_نعم أنا كذلك .

أنت تعلم أن الدّين الذي صرت تعتنقه حاله حال البالوماريـة ، لقد تمّ نسخ الكثير من الآيات و التعاليم واستبدالها بما يتلاءم وأهواء و نزوات البشر لا كما يريد الرّب ، أنتم على ضلال مبين ، لا أنتم برضا ربكم ولا بالعيش كما عاش الذين من قبلكم وطبقوا تعاليم دينهم الصحيحة .

_ومن قال لك كل هذا ؟ .

_يجب أن لا تنس خوان أنطونيو بأننا عضوين في منظمة السلام الوردي وكونك مناهضا لبويسميا الهمجية ، لا يعني أنك تعمل ضدها وتبلغ عنها حتى تزيد من حجم الفتن و النزاعات ، إن ما تفعله حري به أن يجعلك تفقد عضويتك بل وأن تتابع و أن تُساءل عن ذلك ، عندما تكلمت لك عن الدّين لا تنس كذلك بأنني أحيز على شهادة عليا في اللغات والثقافات والأديان ، وحيث أنني لا أتوقف أبدا في البحث والغرض من وراء ذلك الوصول إلى حقائق مطلقة ، وأنا أفعل على كل حال ، ولكن قل لي ؟.

_ماذا تريدين كذلك ؟ .

_أنتم تنشرون دعايات مغرضة حول تعرضكم للتعذيب داخل بوسيميا وتصورن أنفسكم بأنكم أقلية لاستدرار عطف العالم حتى يبلغ ما جاء في نصوص معتقداتكم. وهدفكم النّيل من دولة ساخابيا لاحقا؟

_قلت لك أنني لا أفهم في هذه الأمور و أريد تحصيل المال وفقط، ثم أنني لست كما تعتقدين في الأصل .

_كيف ، إذن وماذا كنت قبل هذا ؟

_كنت ..... .

iLovePDF

_فهمتك أنت تغيّر الأديان بحسب المصلحة والحاجة وليس لشيء آخر و أنتم تجار الأديان، الدين عندكم عادة وليس عبادة .

_لا أكترث لذلك ، أنا أستأذنك الآن بالانصراف ، شكرا لك على الدعوة وعلى كل شيء ، أرجوا أن تكوني عند وعدك الذي قطعتِه لي .

لم يكن يعلم خوان أنطونيو أن مفاجأة سارة في انتظاره بمكتبه ، إنها أخت يوهان ، بعد كل هذا الانتظار ظهرت إنه سعيد بشكل هيستيري .

ترجاها بالجلوس ، جلست وجلس بعدها ، حيث قام بالتّرحاب المكتمل توابلاَ بها :

_إنه أمر مثير للفرحة أن أجدك هنا في مكتبي ، لقد انتظرت طويلا هذه الزيارة حتى كدت أن أجزم بأني لن أتمكن من رؤيتك مرة أخرى .

_هذا لطف منك سيدي .

_لا تقولي سيدي ، أنا خوان أنطونيو وفقط يا .....؟ .

_سعيدة بمعرفتك سيد خوان أنطونيو ، إسمي ماريكا ، واعذرني ربما أطلت في تلبية دعوتك ، نحن نعيش في حرب ، والدي منشغل بشكل غير عادي وأمي كذلك وأنا الآن وحيدة بعد رحيل يوهان الذي سبب لي فراغا فظيعا لن يستطيع أحد ملئه .

_أشعر بذلك ، ليس الأمر سهلا أبدا ، أتمنى أن تكون حالتك الآن أفضل ؟

_أريد أن أهرب من البيت فالبقاء فيه صار فظيعا .

_لا عليك، باب المعهد مفتوح دائما ، إن أردت المجيء إلى هنا فذلك سيشكل لنا كمية سعادة لا توصف شكرا لك على كلماتك اللطيفة .

iLovePDF

علم خوان أنطونيو من خلال جلسات عدة جمعته بماريكا أن والدها يتقلد منصبا ساميا بسلاح الطيران البوسيمي ، وبأن معلوماتها موثقة من خلال الوقائع الميدانية وبأنها لا تتكلم من فراغ.

التزم رغم كل ذلك الصمت المطبق في البداية بعدما علمت أنطونيلا بأفاعليه ، لم تكن لديه الجرأة و الشجاعة لتزويد القيادة بأية معلومة مهما كانت أهميتها ، لقد سكن الرعب مفاصله وشل قدرته على التحرك ، لكنه كان يترصد أية فرصة لإيصال معلوماته إلى جماعة فريديرك .

كانت القوات البوسيمية تحرز انتصارات و توسعات رهيبة على الجهة الغربية حتى وصلت إلى الامبراطورات الصغيرة المجاورة ، والمعلومات التي أرسلها خوان أنطونيو منذ بداية عمله الجاسوسي كانت ضحلة للغاية ، ما جعل الجماعة ترسل له برقية من عنوان في كرومافيا تحت مسمى معهد اليساندرو ماسيميليانو دي بياجيو للثقافات مضمونها الدعوة إلى اجتماع بمدينة ريخا لتوقيع توأمة بين المعهدين .

ترك خوان أنطونيو مهمة تسيير المعهد خلال فترة غيابه إلى أنطونيلا بعد أن تحجّج بسفرية عمل . وفي أثناء مغادرته المكتب دخلت عليه ماريكا تخبره بأن والدتها مريضة ووالدها قد ذهب منذ أيام بعد أن أخبرهم بأن الجيش البوسيمي في طريقه لاحتلال وإخضاع سرماديا و بيتروفياما آخر قلاع أعداء بوسيميا .

كان على خوان أنطونيو أن يظهر الجانب الإنساني فيه ، وبأن يقف مع الفتاة ووالدتها في هذه المحنة ، ثم ينطلق في مهمته التي يعلم بأنها محفوفة بالمخاطر ، ربما لحسن حظه أن الرّحلة تأجلت إلى المساء ، كان عليه استغلال هذا الوقت لإدخال والدة ماريكا المستشفى ونقلها إلى هناك وبأن يترك مبلغا من المال لهما ومن ثمة الاستئذان واللحاق بموعد الرحلة .

iLovePDF

كـان خـوان أنطونيـو يـدرك تمـام الإدراك بـأن فريـدريك يستشـيط غضـبا مـن تـأخره فـي القـدوم ومـن تسـيبه و اسـتهتاره فـي عملـه ، لكنـه ظـل يمنـي الـنفس بـأن المعلومات التي يحملها قد تشفع له وتلّطف من حدة غضب سيّده فيستكين .

لما التقى خوان بفريديريك سأل الأول الثاني :

_يبـدو أنـك عشـت فـي عبـاءة خـوان أنطونيـو وتناسـيت أنـك نيكيتـا الإنسـان الفاشـل الضـائع عبـد المـال ، صـرت تعشـق النسـاء بشـكل ملحـوظ ، بـل إنـك تركـز علـى البنـات اللاتـي فـي مثـل سـن بناتـك ، لـم نرسـلك إلـى هنـاك للهـو واللعـب ، بـل لمهـام أخـرى ، أنت إنسان مقصر و المنون تتربص بك في كل لحظة وحين .

_ماذا؟

_كلامـي واضـح سـيد خـوان أنطونيـو ، أتظـن أنـك تعمـل بمزاجـك و بأنـك مـن تثـق فـيهم و يظهـرون لـك الحـب و يضـمرون لـك الكراهيـة هـم أيضـا بـائعين لشـرفهم ولقضايا أوطانهم وأديانهم ولا يتقاضون نظير ذلك سوى ثمن وجبة فطور !!.

_من تقصد بكلامك ؟ .

_يبـدو أنـك صـرت معشـوق النسـاء الحسـناوات ولكثـرتهم نسـيت مـن أقصـد ، عنـد رجوعـك افصـل سـتيفي بسـرعة وضـع نقطـة نهايـة لعلاقتـك بمونيكـا و ميشـالا و كلارا ، وإياك من الارتباط بماريكا.

ـ ماذا ؟

_لا تتظـاهر بالغبـاء والرّعونـة ، أعلـم أنهـا تمـدنا بمعلومـات هامـة ، والـدليل مـا هـو موجـود فـي يـدي وهـي عـين المعلومـات التـي زودتـك بهـا ، ولكنهـا إن أحبتـك أو طلبـت أنـت الارتبـاط بهـا ، فإنهـا لـم تـرتبط بنيكيتـا ولكـن بخـوان أنطونيـو ، فـإن علمـت حقيقتـك أيهـا الأحمـق فلـن تعتقـك ، الا تعلـم أن هنـاك دعايـة وأخـرى مضـادة لهـا ، ومـا

iLovePDF

يدريك ربما هي تعمل أيضا في المخابرات البوسيمية أو لحساب تنظيم أو فصيل آخر .

انطلقت القوات البوسيمية غربا نحو سرماديا و بيتروفياما ، فسقطت العاصمة غاشاما في أقل من عشرين يوما وسقطت معها أسطورة الجيش الذي لا يقهر ، بيد أن الغطرسة والتكبر الذي كان يهيمن على قادة تلك الامبراطوريتين جعل الخسائر التي تتكبدانها رهيبة والفاتورة بثمن باهض .

عاد خوان أنطونيو من مهمته إلى مكتبه ومن ثمة إلى المستشفى الذي ترقد فيه والدة ماريكا هناك تمّ إخباره بأنها عادت إلى بيتها ، ما جعله يتوجه رأسا هناك ، حيث وجد في استقباله ماريكا بعد أن أنهى إجراءات الدخول عند مدخل الثكنة .

لم يجدها خوان أنطونيو ماريكا في أحسن أحوالها، لقد أخبرته بأن الجيش البوسيمي سيقوم بحملة عسكرية ضد بوخارين وفق ثلاثة جبهات وبأن والدها سيكون ضمن قادة الحملة .

كان عليه مسابقة الزمن لإيصال هذه المعلومات إلى فريديريك ، لم يكن له لينتظر حتى تكمل ماريكا كل المعلومات التي لديها ذات الصّلة بالحملة .

قام خوان أنطونيو بإتمام كافة الإجراءات للسفر مجددا نحو كرومافيا. لكن أنطونيلا أصرت بالذهاب معه ، لكنه رفض رفضا قاطعا مفضلا الذهاب لوحده .

تم تأجيل الرحلة يوما آخر بسبب سوء الأحوال الجوية ، ما سهل لأنطونيلا حجز مكان بالرحلة ذاتها والتي وصلت بمشقة بسبب صعوبة الرؤية لكثافة الضباب .

بمجرد نزوله المطار وعند قيامه بالإجراءات اللازمة قبل التنقل إلى حيث يتوجد فريديرك ، إذ به يلتقي أنطونيلا ، ما جعله يفقد أعصابه ، لم يستطع حتى

iLovePDF

إكمال الحوار معها حتى توقفت سيارة فارهةٌ بقربهما . نزل منها أحد الرجال وأمرهما بالركوب ، حيث أقلتهما إلى وجهة لم يستطع التعرف عليها ، لكن المؤكد أنها ليست ذات الوجهة التي التقى فيها بفريديريكو المرة الفائتة.

توقفت السيارة أمام أحد الأبنية غريبة الشكل واللّون ، نزل الجميع ودخلوا حيث يوجد مجموعة رجال أحدهم على ما يبدو قائدهم بعين واحدة حيث وضع على الأخرى خيطا وقطعة قماش حولها ، نظر بازدراء إلى خوان أنطونيو و أنطونيلا -والآخرين الذين معهم - وهمّ بالحديث إليهم :

_أهلا بكم في أرض كرومافيا ، أيها الأوغاد ؟!.

تسمّر الجميع كلهم دون أن ينبسوا ببنت شفة، حينها واصل كلامه :

_من الحماقة الظّن بأن مطاراتنا غير مراقبة ، إن لم تجدوا فيها الهمجيون وجدتم فيها الكرومافيون ، والمرء على دين خليله ، وبدأ يضحك بقوة ويقول :

_لا تقلقوا سوف نأخذكم إلى عائلتكم حيث يتواجد السيد فريديرك .

تم تعصيب أعين خوان أنطونيو و أنطونيلا ثم سيقا إلى سيارة أقلتهما إلى حيث يوجد فريديريك الذي اندهش :

_كنت أظن أنك ستعود لكن ليس بهذه السرعة المجنونة ، ووحدك لا مع فتاة حسناء مثل هذه ، تكلم ما جديدك ؟

قص خوان أنطونيو على مسامع فريديرك كل الذي سمعه من ماريكا ، لكن دون بيانات دقيقة ولا تفاصيل كبيرة ، غضب فريديرك غضبا شديدا وارتفع صوته :

_هل هذا مهم بالنسبة لك أيها الأرعن ؟ نحن نعلم هذا من قبل، أنت تقدم كلاما أدبيا ومعلومات مستهلكة لا تسمن ولا تغني من جوع ، ثم ما هذا الذي فعلته كيف تتجرأ على فعلة كهذه بأن تأتي إلى هنا ومعك هذه المرأة ؟

iLovePDF

ثـم أمـر معاونيـه بنقلهمـا إلـى أحـد السـراديب المظلمـة إلـى حـين البّـت فـي قضـيتهما .

ظـل كـل مـن خـوان أنطونيـو و أنطـونيلا وقتـا مـن الـزمن داخـل هـذا المكـان المـوحش كعقوبة ، فلم يطلق سراحهما ولم يحاكما .

لكـن يبـدو أن ثمـة طـارئ قـد حصـل ، حيـث أنـه وفـى ليلـة مـاطرة سـمع الاثنـان حركـات غيـر عاديـة مـع أصـوات كـرٍّ و فـرٍّ علـى مـا يبـدو ، فلـم يمـضِ وقـت طويـل حتـى فتح الباب عليهما أحد الأعوان الذي منحهما مبلغا ماليا وترجاهما بالهروب .

تبـيّن لهمـا لاحقـا أنهـا حالـة عصـيان كبيـرة داخـل صـفوف الرجـال التـابعين لفريـديرك ، لقـد فـر الجميـع بمـا فـيهم خـوان أنطونيـو و أنطـونيلا سـيرا علـى الأقـدام وفـى كـل الاتجاهـات ، تـم القـبض علـى بعضـهم لكـن الـبعض الآخـر نجـح بـالهروب نهائيا و التواري عن الأنظار .

كـان لزامـا علـى خـوان أنطونيـو و أنطـونيلا الهـروب إلـى مـلاذ آمـن ، لكـن هـذا لـم ولـن يحـدث مـا دامـا فـي كرومافيـا ، إن الإسـراع فـي الخـروج مـن هـذا البلـد المحفـوف بالمخاطر أضحى ضرورة ملحة .

لـم يعـد أمامهمـا خيـارات كبيـرة فـي الرّسـو علـى وجهـة الهـروب ، فالمكـان كلـه مشـتعل بـالحرب وأقـرب نقطـة هـي رونـس و جزايرانـا وكليهمـا محتـل مـن سـرماديا ، ثـم مـاذا يفعـل الميـت فـي يـد غسـاله ، فمسـألة الهـروب عبـر الطـائرة أو البـاخرة أمـر شـبه مسـتحيل خاصـة وأن تنظـيم فريـديريك نشـيط رفقـة المافيـا الكرومافيـة وكـذا مخابراتها ولهم أذرع في كل مكان والآن هما مطلوبين لا ريب.

بقي حل أمامها وهو الفرار في زورق أو قارب أو سفينة بمقابل مادي.

كـان عليهمـا تصـيد الفرصـة و المغـامرة ولا شـيء غيـر ذلـك ، تـنقلا فـي مقطـورة إحـدى الشـاحنات المحملـة بـالمواد الغذائيـة نحـو مدينـة كـابولي حيـث ميناءهـا الـذي

iLovePDF

يعـج بالحركـة ، فعـلا المسـتحيل للوصـول إلـى أحـد الربـان الـذي يعمـل ضـمن خـط كرسـاليا – كابوليـا البحـري التجـاري حيـث دفعـا لـه نصـف المبلـغ الـذي معهمـا ، مقابـل إخفائهما تحت البضائع إلى عاصمة الجنوب السِّرمادي.

iLovePDF

6.الأرض المقدّســـــــــة ونـهايـة السّفاحين.

iLovePDF

كانت الحرب مشتعلة و البوسيميون يسرحون ويمرحون فوق أراضي سرماديا. اقترحت أنطونيلا على خوان أنطونيو الفرار من الجحيم المزدوج جحيم الحرب و جحيم الملاحقات والذهاب إلى بلدها سارابيا ، وطمأنته بشأن الوثائق اللازمة بأن لها أحد الأصدقاء بكرسيليا يمكنهما الاعتماد عليه .

تمت الإجراءات بسرعة بمساعدة فرانك صديق أنطونيلا لتتوجه رفقة خوان أنطونيو إلى مدينة باولوس أين تقطن عائلتها .

أعجب كثيرا خوان أنطونيو أيما إعجاب بهذه الإنسانة التي عملت المستحيل من أجله وغامرت وخاطرت بنفسها من أجله ، إنه اليوم وحيد وقد خسر كل شيء في حياته ، لم يبقى له سوى أخوه البعيد و أنطونيلا وعائلته التي تركها في إستريفانا وهو لا يدري ما الذي حلّ بهم بعد كل هذا الغياب .

إنه يعيش في حالة من الاغتراب الرّهيبة ، وها هو الآن يتخلى عن ديانته اللوفارية أيضا ليصبح في حالة اللادين بعدما سئم وجرب العديد من الأديان دون خلاص .

لم تكن عائلة أنطونيلا بذلك الثراء الفاحش الذي كان يعتقد خوان أنطونيو . وإنما ميسورة الحال وفقط ، لقد رحبت كثيرا بمجيء ابنتها كما أنها أعدت استقبالا بتقسيمات الطامباتا على شرف خوان أنطونيو الذي سُرّ كثيرا لما رآه .

لم تمر سوى ساعات من وصولهما حتى عرض عليها الزواج بشكل رسمي أمام أهلها ، لم تتردد أنطونيلا لحظة في قبول هذا المقترح وكذا فعلت عائلتها .

بدأت الحملة البوسيمية في بوخارين وفق ما أطلقه البوسيميون بمسمى باربا روكار ، فتوجهت ماريا إلى مدينتها إستريفانا لإغاثة وعلاج أهل بلدتها .

iLovePDF

لـم تكـن تعلـم بـأن آخـر معركـة ينكسـر فيهـا البوسـيميون ستسـمى باسـم مـدينتها ، بـدأ التراجـع البوسـيمي بشـكل رهيـب وعـادت معـه ماريـا إلـى موكـاردا حيـث أهلهـا يقيمون .

تمـت زيجـة خـوان أنطونيـو بـأنطونيلا وعاشـا معـا فاصـلا مـن الـزمن ، ولمـا استقلت موكاردا ، همس إلى أذن زوجته بأنه يريد الذهاب إلى هذا البلد :

_ماذا تقول ؟

_مثلما سمعت ، إنه بلد يمثل لي الكثير ، إنه بلدي وبلد أجدادي.

_أنت بوخاريني الأصل ، و الجنسية .

_لا ، أنـا مـن أصـول موكارديـة و إسـمي الحقيقـي راجيـف ، الا تـرين بـأن بشـرتي ليست شقراء ؟

_نعم ، ولكن ليس كل البوخار شقر.

_المهـم ، هـل تـذهبين معـي ، نـذهب إلـى هنـاك حيـث أخـي ، أريـد زيارتـه ثـم أتوجـه إلى حيث عائلتي في مدينة إستريفانا ؟

_نعـم سـأفعل ولكـن إن لـم أجـد الظـروف مواتيـة سـأعود ، ولكـن مـا سـرُّ هـذا التغيـر الجذري في حياتك ، صرت رهيف القلب ، تحنُّ للأشخاص وللأماكن بشكل طاغٍ ؟

_لا ، أبـدا ربمـا شـبعت مـن الحيـاة وربمـا بـدأت أحـس بـألم ووخـز فـي قلبـي حيـث عملـت عمليـة جراحيـة ومتابعـة طويلـة عليـه ، كمـا أننـي بـدأت أحـس بالاكتئـاب ، أحـس بضيق في صدري كأنما يصعّد في السماء .

_حسـنا ، فهمتـك أنـت تعـاني مـن الـرّوتين القاتـل ومـن فوضـى المكـان ، نحـن نعـيش فـي مدينـة كبيـرة تعـج بالنـاس وبالمركبـات وهـو مـا يخلـق جـوا مـن التلـوث والفوضى وقلبك لا يتحمل كل ذلك .

iLovePDF

حـزم الزوجـان حقائبهمـا للسـفر نحـو موكـاردا ، إنهـا المـرة الأولـى التـي تسـافر فيهـا أنطـونيلا نحـو هـذا البلـد وهـي تريـد خـوض هـذه التجربـة التـي لـم تقتنـع بهـا فـي البدايـة ، لقـد ملـت السـفر و التر حـال مـن مكـان لآخـر ، هـي غريـزة الأنثـى حيـث تنتقـل إلى حيث ينتقل ذكرها ، لكن أتراها تتخذ هذا البلد مستقرا أخيرا ومقاما .

كـان مطـار العاصـمة يعـج بحركـة كبيـرة ، حيـث الطـائرات مـن مختلـف الأشـكال و الألـوان ، وعديـد المسـافرين الـذين يغـادرون والـذين يحلـون ، لقـد أثـر اسـتقلال موكاردا الحديث عن بيتروفياما زخما إضافيا في كل هذا.

وصـل الزوجـان إلـى هـذا المطـار ومنـه توجهـا إلـى مدينـة سـاباي حيـث يسـكن أخـاه ، لقـد كانـت رحـلات شـاقة متواصـلة ، ونيكيتـا صـار لا يسـتطيع ، فـألآم القلـب صـارت توجعـه أكثـر مـن أي وقـت مضـى ، لكـن رغـم ذلـك حـاول أن يقـوم بجولـة خاطفـة حـول المدينـة ومعالمهـا ليشـم رائحتهـا ويكحـل نـاظره برؤياهـا بعـد كـل هـذه المـدة الطويلـة من اللاحضور .

كـان علـى نيكيتـا الانتظـار قلـيلا عنـد بـاب منـزل أخيـه –الـذي حـلّ بـه صـاغراً- حتـى يؤذن له بالدخول ، توجه الخادم سيهار إلى حيث يجلس سيده :

_سيدي إن أحدهم يريد مقابلتك.

_أخبرني من يكون هذا الرجل ؟ .

_إنه يقول اسمه نيكيتا .

_لا ضير، دعه يتفضل بالدّخول.

يـا لهـا مـن مفاجـأة مدوّيـة، لـم يكـن صـاحب البيـت سـوى السـيد مـارك ، إنـه أخـو راجيـف المكنّـى بنيكيتـا ، لـم يسـتطع ولـم يتمالـك الأخـان نفسـيهما مـن شـدّة البكـاء والتأثر بعد هذا الغياب الطويل .

iLovePDF

قدّم راجيف زوجته لأخيه ثم امتدح وقوفها بجانبه في كل الظروف والمحن وأن ذلك الأمر كان دافعا له للتقدم للزواج منها ، ثم قص عليه كل الذي جرى معه لحظة خروجه من موكاردا إلى لحظتهم التي فيها يتكلمون .

تأثر مارك كثيرا لسماعه كل هذا الكلام من الأحداث و المواقف العصيبة التي مر بها أخوه ، لكنه ألقى بحبال اللوم عليه عندما قال :

_لما كل هذا الجفاء أخي راجيف ، لما كل هذا الاغتراب في عرض البحار ، وأنت تعلم بأنك أخي الوحيد وأخاف عليك حتى من نفسك ، لم يكن لدي طاقة لمعرفة مكان وجودك وإلا لما تأخرت عليك رفة عين ، لقد حاولت الوصول اليك ولكن ما باليد من حيلة وجدت جميع المنافذ مغلقة في وجهي ، ولكن أنت تعلم مكان وجودي ولكنك لم تحاول حتى الاتصال بي بل إنك لم تفعل أنا على يقين من ذلك ، ثم ما هذا الذي سمعته منك إنه أمر مثير للغرابة والاندهاش بل وللتذمر والأسف ، ما لذي دفعك لفعل كل تلك الأباطيل في حق نفسك وغيرك .

_ولكن على رسلك أخي، أنا لم أفعل شيئا حتى تعاتبني هكذا وتلقي بأقصى درجات اللّوم عليّ ؟

_أولا أنا أخوك الأكبر وقد تربينا في بيئة احترام ، كان عليك الاطمئنان عليّ ، لا تركِي كل هذه المدة وحيدا .

_ولكن أخي مارك ، أنت الآن من أغنى أغنياء المدينة ولا تحتاج لأحد ، حتى أنني عندما قررت زيارتك لم أكن أعلم بأنك في أحسن حال ، لدرجة أنني عندما وصلت المدينة ذهبت أولا إلى الكوخ الذي كنا نسكنه فأخبروني بمقر سكنك هنا وقصُّو عليّ قصتك حتى خِلتُ نفسي أسمع إلى قصص الف ليلة وليلة .

_من المثير للشفقة أن تنظر إلى الحياة نظرة مادية بحتة ، أشفق عليك أخي عندما أسمع منك كلاما مثل هذا ، الحياة حب و مودة وتضحية ، الحياة شفقة

iLovePDF

ومساعدة للآخرين ، الحياة أخلاق ومبادئ وقيم ، أن تعيش مظلوما خير لك من أن تعيش ظالما ولو طال الدهر ، عد إلى ماضيك الوجيع ، عشت كما قلت لي ورويت زمنا بالغربة ، أصبت الكثير من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، تسببت في ترويع الناس وسلب لذّة الحياة منهم ، تاجرت بالسلاح غير آبه بأرواح المدنيين والأبرياء كنت عضوا فاعلا في عصابة إراقة الدماء واستباحة المحرمات .

عشت جاسوسا حقيرا تنقل الأسرار وتفشي الأخبار مقابل قطعة حلوى يترفع عنها الأطفال الجياع والنساء العاريات ، غيرت دينك ألف مرة ليس لأنك تائه مريض يبحث عن الحقيقة والخلاص بل للبحث عن الدراهم والمال الحرام ، من أنت اليوم ، لا تحمل همّ الإجابة أنا من أجيب بدلا عنك .

_أنت اليوم شبح من دون روح ، رجل بلا مبادئ ولا أخلاق ، إنسان يأكل ويتكاثر كما تفعل الأنعام بل أنت أضل منهم سبيلا ، أتدري لما ؟

كان الصّمت المطبق يخيم ويلقى بظلاله على ثغر راجيف ، الذي لم ينبس ببنت شفة ، بل إنه كان يطأطئ رأسه في خجل .

واصل مارك كلامه :

_لأنك إنسان بعقل والعقل مناط التكليف، أما الحيوان فلا عقل ولا تكليف، بقدر ما أسعدني وجودك بجانبي بقدر ما تمنيت عدم رؤيتك وعدم سماع أخبارك الموجعة.

لقد تركتني صغيرا فقيرا وجيعا ، كنت بأمس الحاجة إليك حينها ، كنت أتألم و أتوجع من قهر الحياة وحرمانها ، كنت أريدك السند والعضد والظهر الذي أمد نفسي للاستناد عليه ، تركتني أواجه مصيرا مجهولا ، أجابه أمواجا متلاطمة لا قِبل لي بها ، في عرض البحر كنت أعزلا حيث لا أنيس ولا جليس ، تركتني في

iLovePDF

ظلمات ثلاث ظلمة العوز والفاقة وظلم النّاس ولحظتها لا والدة ولا والد و ظلمة الوّحدة ويالها من ظلمة .

أنا لا أقسو عليك بكلامي ولا أهجوك بلساني ، ولكن أريد منك الرّجوع إلى جادة الحق و الصواب إلى حيث خلاصك ونجاتك ، إبحث عن الحقيقة في نفسك ، في غيرك، في ماضيك ، في حاضرك ، صلح وصحح أخطائك ولو بلغت عنان السماء ، كن رجلا في حلّك وترحالك ، لاتبع مبادئك بثمن بخس ، كن أنت ولاتكن غيرك ، عندما تدرك كل هذا سيرتفع المقام لا محالة و لو طال الزّمن.

_كلامك دواء أخي مارك ، ولكن هل صبئت عن دين آبائنا ، من خلال عرض كلامك بدا لي جليا ذلك ، هل الأفكار التي تعتنقها تعبر عن ذلك .

_وهل للأخلاق وللإنسانية وللمبادئ دين ، أنا لم أكلمك لحد اللحظة عن الدين ، بل مجموعة مواعظ وعصارة تجارب إستقرت في وجداني بعد كل هذا العمر الذي عشته ، ألم تعلم بأنه في أزمنة سابقة سحيقة حيث سميت بالجاهلية كانت الأمم تؤمن بل وتعمل على تطبيق كل تلك الأخلاق والمبادئ .

حتى تلك الأمم التي كانت دون دين ولا عقيدة ، أنصحك أخي بإعادة النظر في كل تفاصيل حياتك والإستفادة من عبر و دروس الماضي ، تبني راجيفاً حديدياً ، ثم أقبِر في رمسٍ كل تلك الذنوب والخطايا ، و انطلق كما تنطلق الطيور في الفضاء الشاسع ..والفلك في البحر الهادئ الواسع .

_سأفعل بكل تأكيد أخي ، ولكن لم تعرفني على عائلتك ، يبدو أنني صرت عمّاَ لجيشٍ من الأولاد ؟

_لا ، ليس الأمر كذلك ، لقد سبق لي أن تزوجت بفتاة من ديانة لوفارية ثم تزوجت مرة ثانية بإمرأة من ديانة تاخامية وطلقتها ثم ثالثة سيكاشية وكذلك فعلت

iLovePDF

، ثـم رابعـة بالومـاريـة و سـرحتها بعـد مـدة وجيـزة وجمـيعهن لـم ينجـبن لـي ، أمـا الآن فأنا متزوج من أنثى بوخارينيةٍ تدعى ناتاليا لها بنت من رجل آخر وفتىَ .

_يبدو أنك رجل يريد الجمع ما بين الأديان .

ابتسم الجميع ثم واصل راجيف كلامه :

_كانـت لـي زوجـة عنـدما كنـت فـي بوخـارين تـدعى ناتاليـا ولهـا بنـت تـدعى ماريـا وولـد يـدعى روبيرتـو ، لقـد تـركتهم غصـبا عنـي بعـد طعنـي بخنجـر فـي المحـل الـذي كنت أملكه .

انـدهش مـارك مـن كـلام أخيـه ، هـل هـو تشـابه أسـماء أم هـم أفـراد عائلتـه فعـلاً ، تنقل جميعهم إلى هنا ، ما هذه الصّدف ؟ .

كـان علـى مـارك و راجيـف وزوجتـه الانتظـار إلـى حـين وصـول ناتاليـا وماريـا مـن العيـادة التـي تعمـل بهـا ماريـا وكـذا روبـارتو الـذي يعمـل بـالمنجم ، فناتاليـا أصـبحت تعمـل كمسـاعدة لابنتهـا فـي العيـادة ، وفـي آخـر المسـاء يقـوم روبـارتو بإيصـالهم بسيارته إلى البيت .

دقّـت سـاعة الحقيقـة ، ودخـل الثلاثـة إلـى حيـث ينتظـر الثلاثـة ، إنهـا لحظـة فارقـة ، لحظة تأمل بل لحظة دهشة وحيرة .

كـان علـى مـارك وزوجـة راجيـف رؤيـة هـذا المنظـر المهيـب حيـث تلتقـي عائلـة ذات شـتات ، حـين يلتقـي الميـت مـع الأحيـاء ، أن تـرى حيـا بعـد طـول غيـاب فهـذا أمـر صـعب ولكنـه ممكـن ، لكـن أن تـرى شخصـا فـارق الحيـاة وقضـت عليـه المنيـة ثـم بعـد ذلـك رُمـس بعـد كـل هـذه المـدة ،فـذاك الأمـر الـذي لا يتحملـه كـائن مـن كـان ولا يستوعبه عقل بشر .

لـم تسـتطع ناتاليـا رؤيـة زوجهـا الميـت فسـقطت مغشـيا عليهـا وكـذا حـدث نفـس الشـيء مـع ماريـا ، وحـده روبـارتو الـذي تمتـع لحظتهـا بأعصـاب مـن حديـد ربمـا لأن

iLovePDF

الميّت الحي ، زوج أمه وليس والده. ثم لافتراقهما في وقت سابق جدا .وكذا لارتباط راجيف بالشخص الشرير في مخيلة روبارتو .

تأكد الجميع أن الأمر ليس بالنهاية من حبك الصدف ولا من قبيل الخيال بل هو أمر واقع وقد رأوه رأي العين .

كان على راجيف أن يعيد كل شريط الذكريات وتلك اللحظات ما بعد وفاته إلى لحظته التي يعيشها الآن بكل تفاصيلها وحيثياتها ، ربما يشفع له ذلك عند زوجته السابقة خاصة ، لكنها في ما يبدو لن تعره اهتماما ، إنها تراه الآن رجل غريب وهي أنثى رجل غيره وعليه تحمل كل أعباء الماضي وتبعاته لأنه هو من حرث وهو من يحصد دون سواه ، لقد تحملته كثيرا وربما كانت ستفعل وتكمل معه مشوار خريف العمر الباقي ، لكن ذلك لن يحصل بكل تأكيد .

لم يستطع راجيف إكمال الجلسة ، وكيف يكملها وهي مثخنة بالمواجع والدموع ، كان عليه الانصراف وياليته ماحل ولا جاء ، ربما يفكر في العودة من حيث آتى ، ولكن ثمة شيء بداخله لم يفهمه ، صوت من عمق الذات يترجاه أو يأمره بالنزوع نحو البقاء هنا .

أمر مارك أحد خدمه بإيصال أخوه السيد راجيف إلى قصر ريفي به مزرعة فاخرة تحتوي أشجارا و مروجا ذات بهجة وخيولا ونعاجا .

وصل راجيف وزوجته أنطونيلا ، فانبهر بما رأى ، سلمه الخادم المفاتيح وقال له :

_إنها أوامر السيد مارك هذا كله لك ،وسأكون عندك يوم الغد لتسليمك عقود الملكية ومعها أوراقك الثبوتية .

لم يتمالك راجيف نفسه من شدة البكاء ، بل إنه في لحظة ولهٍ تجاه أخيه سقط مغشيا عليه من الفرحة والحزن معا .

iLovePDF

لقد كان البيت في موقعه يشبه قصرا مشيدا فوق تلة خضراء تمر بين جنباتها جداول زرقاء ومن فوقها سحاب يجري فوق الرؤوس والهامات ، وضباب صباحي يحجب الرؤية فلا يكاد حينها يظهر شيء عدا مئذنة المسجد التي تنتصب عاليا حيث لا ضباب ولا سحاب .

كان أمام راجيف متسع الزمان والمكان والإنسان لكي يعيش حياة جديدة ملؤها الهدوء والسكينة والتأمل ، لقد كان له جيران على قلتهم في منتهى الرقي والتحضر والمسالمة ، يعاملونه بطيبة ويسدون له النصيحة ويبذلون له الأشياء الرّخيصة منها والنفيسة ، إنهم من الأقلية المسلمة التي تعيش في المدينة وخاصرتها ، لقد أعجب بهم راجيف وبحسن صنيعهم ، كبيرهم وصغيرهم .

إن مثل هذه الأجواء البسيطة الممتعة للروح والجسد معا ، جعلت راجيف يفكر مليا في وضعه العام ، لقد صاحب رجلا يرتاد هذا المسجد وجعله يعتنق دين الإسلام ، لقد أصبح راجيف مسلما ، يصلي ويصوم ويتصدق .

لكن المرض الذي آلم به جعله لا يتعاهد مسجداً ولا يخرج إلى شارعٍ، بل إنه أصبح رهين السرير و البيت ، وأمام مصابه هذا لم يكن أمام زوجته أنطونيلا من بد سوى تخييره ما بين العودة إلى الديانة البالومارية والبقاء معه و الاعتناء به ، أو بقاءه على المّلة الجديدة مقابل رحيلها من حياته نهائيا والرجوع إلى بلدها .

وأمام الهوى والدّنيا وإبليس ووسوسة زوجه ، قرر راجيف الأوبة إلى الديانة البالومارية الدراباكية ، أحس بنوع من التحسن الوقتي الخادع ، لكنه ما لبث أن عاد إلى أسوء حالاته الصحية إلى أن قضى .

لم يطل مارك المقام في الدنيا بعد وفاة أخيه راجيف ، وهذا بعد صراع طويل مع المرض الذي أقعده الفراش مدة ، عن عمر ناهز التسعين عاما ، لم يغير من

iLovePDF

خلالها دينه الرّاسي الذي ظل عليه وعكف عليه يخدمه كما فعل آبائه الأولون الآفلون!

خلف الراحل مارك ثروة طائلة سجلها باسم زوجته السيدة ناتاليا ، التي انكفت على نفسها حدادا على فقيدها الذي أحبته بكل جوارحها ، بكل ضعفها وبكل قوتها وهو الذي أنساها جرحها المكلوم وكان دواء لها ولكل مظلوم .كان لها أملا في الحياة بعد أن أذاقها الهالك رمادا وأطلالا وأسكنها بين أسوار القبور .

لم تكن لتستلذ بما تركه لها من ذهب وألماس وأحجار كريمة ، فمصابها جلل وقلبها مفجوع ، وفي لحظة اعتراف وضعف ومرض أصرت لابنتها ماريا بالقول :

_لا طعم للحياة من دون النّاس الذين نحب ، ولا مذاق لها اليوم و الدمع من عيني قد نضب ، قد كانوا هم اللحن هم الطرب ، فكيف تحلو الأيام والمرء حزين لا عجب ، فلو تكشّف قلبي لك لوجدت به نار ولهب ، مشتعل بالغيظ والشوق وبالحطب ، تمنيت لو خفّ وهج الشوق له فليته قهرني وليته ضرب ، لكنه لم يفعل ذلك أبدا وما غضب ، لا أعلم اليوم كيف أعيش من دونه إن وجعي زاد والأجل قد اقترب ....

لم يرحم الحزن قلب ناتاليا الوجيع ... بل قطع نياطيه شرّ ممزق ،ودخلت في سراديب الأحزان بشكل مفزع ومريع متفاقم.

حاولت ماريا إغاثة ومساعدة أمها كونها طبيبة متمرسة لكن لم تتحسن حالتها ، بل ازدادت سوءَ، أخذتها حينها إلى البيرهافيا وقرأت عليه قليلا من ما جاء في الكتاب المبجّل لكنها ظلت تراوح مكانها، بل إنها ساءت إلى أفظع حالاتها .

ماتت ناتاليا لتلحق بزوجها راجيف وأخوه مارك ، تاركة الثروة الهائلة لابنتها ماريا وابنها روبارتو ، ومعها مات جرح غائر وحزن موجع حد النُّخاع .

iLovePDF

7.عودة إبليس

iLovePDF

لـم يكـن سـقوط جوزيـف أسـفل منحـدر غابـة لاتوفـا بعـد مباغتتـه مـن طـرف أندريـه مميتـا ، بـل إنـه ظـل معلقـا بشـجرة مـن أشـجار سـفح المنحـدر ، حيـث تمكـن مـن النـزول صوب الوادي الذي أسفل منحدر الغابة ، ليتمكن من النجاة بنفسه.

اسـتطاع الفـرار بعـدها إلـى كارانيـا ، ليعـيش هنـاك طيلـة فتـرة الحـرب ، حيـث كانـت كارانيـا فـي تلـك الحقبـة خاضـعة للحكـم البوخـاريني ، ثـم توجـه نحـو دولـة إيسـترادا المجاورة .

فـي هـذه الفتـرة ضـيع كـل المـال الـذي يملكـه بعـد صـرفه علـى الموبقـات والملـذات الفانيـة بعـد أن جـرب جوزيـف الديانـة البالوماريـة ، التـي لـم يجنـي منهـا سـوى التسـكع والتشـرد والإفـلاس بعـد الغنـى ، أراد لنفسـه دينـا جديـدا ، والموضـة كانـت حينها الديانة اللوفارية ؟

إنتقـل جوزيـف ضـمن مجموعـة مـن تلـك الأفـواج المهـاجرة عبـر رحـلات مدفوعـة التكـاليف نحـو أرض اسـتعمرها اللّوفـار تـدعى داماسـيا ، وهدفـه منصّـبٌ علـى تحقيـق مكاسـب ماليـة جديـدة تعوضـه عـن تلـك التـي اسـتنزفها فـي وقـت سـابق عنـدما كـان بالومارياَ . لكنـه لـم يكـن لـه مخطـط أو خطـة عمـل مـن أجـل ذلـك ، بـل تـرك كـل شـيء للصّدفة دون سواها .

مكـث بضـع أيـام وهـو يراقـب الوضـع عـن كثـب ، يتنقـل عبـر شـوارع العاصـمة سـيريكالفيا ، يتحـيّن فرصـة الحصـول علـى مشـروع يـدر عليـه المـال ، ولا شـيء غيـر المال ، أما الدّين فلا يهم إن ذهب إلى قاع الجحيم ؟

iLovePDF

لـم يكـن جوزيـف وحـده مـن يراقـب ، بـل كـان رجـل الـدّين اللوفـاري روجـار دي مـارتين ، يفعـل نفـس الشـيء إنـه يبحـث عـن معـاونين للـزّج بهـم فـي مشـاريعه وكـذلك عن أعضاء في أحد التنظيمات والتي يشرف هو شخصيا عليها .

وقعـت عينـه علـى جوزيـف أكثـر مـن مـرة ، لقـد تـيقن أن هـذا الرجـل تائـه ضـائع يبحث عن شيء ما ، لكنه لم يعرف لب هذا الشيء ، اقترب منه ليسأله :

_ مرحبا، كيف حالك سيدي ؟

رد عليه جوزيف وعلامات الاستغراب تعلو محياه :

_ من ؟ أنا ؟ هل تقصدني أنا سيدي ؟ .

_ نعم، لو سمحت.

_ آه ، بكل تأكيد ، المعذرة ، أنا بخير ، لكن من أنت ؟ .

_ أنـا السـيد روجـار دي مـارتين، أسـكن هنـا فـي شاخماسـك ، لقـد رأيتـك عـدة مـرات هنـا وأردت مسـاعدتك إن أذنـت لـي ، يبـدو لـي مـن خـلال مشـيتك ونظرتـك أنـك حديث العهد بالمكان .

_ نعم ، هو كذلك، أنا وافد جديد إلى هذه المنطقة .

_رائـع ، فـي الحقيقـة كلنـا حـديثو عهـد بهـذا الـوطن ، ولكننـي أعـرف المنطقـة جيـدا ولي معارف فيها وعشت فيها قبل هذا الوقت .

_لا أعلم إن كنت سأحتاجك، ربما ؟ .

_ إذن سأترك لك عنواني ورقم هاتفي ، اتصل بي في أي وقت تريد ؟

انصـرف روجـار تاركـا جوزيـف فـي حيـرة مـن أمـره ، يريـد أن يتقـبض علـى هـذه الفرصـة المتفـردة ، لكـن لـم يسـتقر علـى الشـيء الـذي يريـده أو مـا هـو المشـروع الـذي يدر عليه أرباحا أكثر ؟

iLovePDF

بعد أقل من أسبوع ، توجه جوزيف إلى حيث يسكن روجار رجل الدّين، طرق الباب ، فسُمح له بالدخول ، كان عليه الانتظار لحظة زمن حتى يستقبله مُضيفه الذي ابتهج :

_ أهلا بك سيد جوزيف ، تسعدني زيارتك .

_أنا كذلك مسرور بذلك سيدي.

_هل فكرت بمشروع تريد الانضمام له ؟ .

_ لا ، سيدي تركت لك حرية الاختيار ، لا أعرف طبيعية المشاريع الموجودة ، فقط أريد مشروعا ربحي ؟ .

_ابتسم رجل الدّين اللّوفاري ابتسامة صفراء وأردف :

-سأرسلك إلى السيدة سارة بلومبرج ، هي من ستقوم بتوجيهك إلى عملك الجديد؟.

قام روجار بكتابة العنوان على قطعة ورق ثم منحها إلى جوزيف الذي همّ بعدها بالانصراف ، متوجها رأسا إلى حيث أرسله المرسل .

وصل جوزيف إلى أحد المكاتب الرثة المهترئة التي لا يظهر عليها نوع من الجِدّة ، بل إن شكلها يوحي بتعاقب عشرات السّنين عليها .

كانت السيدة سارة جالسة تنظر إلى النافذة التي أمامها ، والباب من خلفها ، حيث استدارت كلية بكرسيِّها .

دخل جوزيف ، وألقى بالتحية عليها لكنها لم ترد ، ثم أعادها كرة أخرى ، لم ترد كذلك ، فسكت قليلا ثم كررها ثالثة :

_عمت صباحا سيدتي ، أنا السيد جوزيف وقد أرسلني إليك السيد روجار.

_تريد عملا يدر عليك أرباحا ؟ أليس كذلك؟

_ بلى، سيدتي أريد ولكنني لم أستقر على مشروع ؟

iLovePDF

- ولكنك شخص عربيد مستهتر ؟!

_ لم أفهمك سيدتي ؟

_ بلى ، أنت تفهمني جيدا ، لقد عثت فسادا عندما كنت في بلدك كنت تغتصب الفتيات الصغيرات في البيرهافيا ، وتتاجر في أرواح الناس ،كنت عضوا في عصابات الإتجار غير المشروع بالسلاح والمتاجرة بالأعضاء البشرية ، وصاحب سوابق عدّة ؟!.

_ما هذا الذي تقولين سيدتي، إنه كلام غير مؤسس، من أنت، ما دليلك ؟ .

_ أنت تعرف زفيتلانا ؟ .

_ لا أعرفها قطعا ؟ .

استدارت السيدة سارة بلومبرج نحو جوزيف وأردفت تقول :

_ أنا هي زفيتلانا ، أيها الأحمق ، كنت أظن بأن أندريه قد قضى عليك لكنك لاتزال حيا . كما بعت قضايا وطنك ، وأبناء جلدتك ، وكما تنازلت عن دينك ، وكما خنت نفسك وأهلك من أجل حفنة مال ، أنت على استعداد لفعل أي شيء وبيع كل ما تملك وما لا تملك ولو مقابل حفنة تراب . سأقضى عليك لأنك كنت سببا في قتل ابننا ووأد حلم وردي بالنسبة لي ، لقد قهرتني وسرقت مني حلما ، وسلبت مني رحما وأثخنتني ألما ، ولم تتركني وامري يوما .

برصاصات ثلاث قضت زفيتلانا على صديقها الهارب من وطنه ، الفار من موتته الأولى ، إنها نهاية القائد الديني البالوماري جوزيف الذي عاش عبدا للمال والشهوات ، مستقراَ بين جنبات الرذيلة والفسق والمجون حتى في عزّ أوقات العبادة !

لم تكن تلك العبارات التي استقرت إلى الأبد في جسده سوى نهاية لأحد أكبر رجال الدين الذين استغلوا المنصب لخدمة أغراضهم الحقيرة الواطية.

iLovePDF

ظـن النّـاس بأولئـك حسـنا ، ظـل يسـيطر علـى عقـولهم وأفقـدتهم وقتـا طـويلا مـن الـزمن ، ربمـا كـان بعـض مـن فئـات الشـعب أو علـى الأرجـح أغلـبهم يتمنـون بـل ويطـالبون بـرفعهم شـعارات ويافطـات تطالـب بـالتخلص مـن هيمنـة البيرهافيـا ـمكـان العبـادة البالومـاري- وإقطاعيـة رجـال الـدين ، وبدولـة مدنيـة علمانيـة فيـه كثيـر مـن اللغط وعدم الفهم .

ذلـك أن البيرهافيـا ورجالهـا بمـا يعتنقـون مـن ديـن منسـوج متفـرع عـن الـدّين البالومـاري وبمـا طالـه مـن تحريـف وتزييـف ممـنهج ، ثـم باسـتغلالهم المنصـب والنفـوذ ، كـانوا عالـة علـى أنفسـهم مـن جهـة ، وعلـى مجتمعـاتهم مـن جهـة أخـرى ، فالـدين لا يفصـل عـن الحيـاة ولا عـن الحكـم ، ولكـن أي ديـن ذلـك الـذي فيـه النجـاة وخلاص الناس جميعا .

لمـا تخلـص النـاس فـي قـرون سـابقة مـن سـيطرة البيرهافيـا مقـر عبـادة البالومـار، وتـدخلها فـي الحيـاة العامـة وبخاصـة السياسـية ، لـم تتغيـر ظـروفهم الروحانيـة والنفسـانية إلا تلـك الماديـة لأن الحيـاة عنـدهم مـادة وليسـت روح ، لـم تتغيـر لـيس لأن الإشـكال فـي الأشـخاص بـل فـي مـا يعتنقـه أولئـك الأشـخاص مـن نصـوص منسـوجة ، صـاغها بعضـهم بنـاء علـى نـزواتهم ورغبـاتهم ومصـالحهم ، فضـاعت نصوصهم وضاع دينهم وضاع إنسانهم .

انتهـى جوزيـف وتخلصـت منـه زفيتلانـا نهائيـا بعـدما ظـل اسـمه ورسـمه وكيانـه يلاحقهـا فـي كـل مكـان تـذهب إليـه ، فـي حلهـا وترحالهـا ، فـي صـمتها وكلامهـا ، كانـت تعتبـره ميتـا ، لكـن هاجسـا مـا كـان بـداخلها يسـكنها ويقـض مضـجعها ، لـم تكـن تجـد لـه تفسيرا طوال المدة السابقة .

إن نـوع البشـر الـذي يتميـز بالشـرورية وبالدمويـة - وزفيتلانـا واحـدة مـنهم - لا تهمهم إلا أنفسهم ومصالحهم ولو على حساب جثث ملايين الناس .

iLovePDF

أن تتخلص من كابوس فظيع ظل يلاحقها فهي على إستعداد من أجل ذلك لفعل أي شيء بدون رحمة ولا إنسانية ولا ضمير ولا ندم .

كانت على استعداد لبيع مزيد من إنسانيتها ودينها ومبادئها وضميرها أو بالأحرى ما تبقى من ذلك ، فحسابها يصل الآن إلى ما يناهز الصفر من الأخلاق والدّين أو ما دون ذلك ، بعد أن فقدت كل مالها الذي سلبه أحد الشباب الذي أحبته ثم تزوجها ولعب بعقلها وقلبها .

انخرطت في منظمة إرهابية لم ترحم حتى اللّوفاريين الذين قدموا إلى داماسيا ، حيث تم استفزازهم واستغلالهم وابتزازهم من أجل إسكانهم في مناطق مأهولة قريبة من خطوط المواصلات وأهم الهيئات والمؤسسات مقابل مبالغ خيالية بعقود مزورة أو غير قانونية ثم إعادة بيعها إن أتيحت الفرصة ، خاصة وأن أعدادا هائلة من الناس تدخل يوميا إلى المدينة بغرض الاستقرار فيها .

مقابل ذلك تعمل المنظمة على نزع الملكية من المواطنين الأصليين أصحاب أرض وعرض أبا عن جد ، ثم ضربهم وتهجيرهم عدوانا وظلما .

لقد كانت زفيتلانا أو سارة بلومبرج أحرص أعضاء المنظمة على القيام بتلك الأعمال البشعة ، بل إنها فاقت في ذلك اللّوفار أنفسهم ، إنه الجشع والطمع في أشنع ضروبه ، ومن تعود على الإجرام وعدم الاحترام مرة حريٌّ به إتيانه مليون مرة .

بدأت سارة بلومبرج بالتنمر والتفرد في إصدار القرارات ، ونسخ أخرى صادرة عن بعض القياديين ، والتلاسن الدائم معهم والدخول في صراعات خاصة ما تعلق بالأموال المحصل عليها وكيفية توزيع المغانم ، ما جعل بعضهم يستشيطون غضبا منها .

iLovePDF

لقد حان حسبهم التخلص من هذه المرأة التي لم ولن يغيب عن ذاكرتهم بأنها بالوماريـة الأصل منذ دخولها ، وبأنها كما تخلت عن دين آبائها بحفنة مال ، ستتخلى يوما عن دينهم بحفنة تراب .

اتصل روجار دي لا مارتين ذات صباح بزفيتلانا ، داعيا إياها إلى اجتماع تنوي المنظمة تنظيمه بمكتبها الذي قتلت فيه جوزيف :

_ أنت من القيادة ونحتاجك حتما للتناقش والتفاوض حول عديد المسائل التي تهم المنظمة والبلد ككل.

_ لا أريد رؤية أولئك الحمقى الذين يفرضون رأيهم بالقوة ويمتلكون رؤوسا بها جماجم لا عقول؟

_ طبعا، هذا ما أردت قوله لك، نريد تنظيف المنظمة من كل الشوائب، ومن كل الأعضاء غير الفاعلين والمنتفعين.

_ حسنا ، متى سيعقد الاجتماع ؟

_غدا عند الساعة التاسعة صباحا.

_ حسناَ، سأكون بانتظاركم .

توافد الأعضاء كلهم في اليوم الموعود عند الوقت الموعود في المكتب الموعود ، تناول روجار كلمة الافتتاح ثم فسح المجال أمام المتدخلين ، لم يكن عدد الأعضاء كبيرا ، ولم تكن سارة تنتظر هذه المفاجأة غير السارة بحضور أشخاص لا تود رؤيتهم ولا سماع أصواتهم ، التزمت الصمت في البداية ، لكنها انفجرت في وجه بن يمين بالقول :

_لقد عاهدتني بأن الاجتماع سيكون مغلقا وبأن أعضاءَ لا أريد رؤيتهم سيتم تغييبهم ، ولكنك حنثت اليمين وغدرت بي .

صمت قليلا ثم قال:

iLovePDF

_ كنت أريد ذلك، لكن ثمة قضية مصيرية يجب أن نناقشها اليوم لذا كان لزاما حضور الكل للتصويت عليها.

_ لم أفهم، ما هذه القضية المفصلية ؟ .

_إعدامك أيتها السّافلة الحقيرة ؟

لست مضطرا لتذكيرك بماضيك الإجرامي الأسود ، والذي كان آخره تصفيتك لابن بلدك ودينك جوزيف ، أنت سرطان ينتشر في كل مكان ولابد من استئصاله والقضاء عليه قبل أن يقضي على الحياة التي سرقت لذتها من أعين الناس وقوضت حلما يانعا من قلوبهم !!.

نظر روجار إلى الحاضرين وقال :

_الآن تبدأ عملية التصويت، من منكم مع إعدام هذا الوباء ؟

_رفع الجميع أيديهم للتدليل على صيغة القبول.

أمر بن يمين الكل بالانصراف من المكان ، ثم طلب من زفيتلانا أن تقول آخر كلمة لها في الحياة ، ولها أن تطلب أي طلب كان بعد ذلك ، نظرت إليه باحتقار وازدراء وقالت :

-أنتم يامن تدعون الطّهارة والنّقاء ، قبل أن تنعتني بالسّرطان والوباء ، وبالقاتلة وبالسفاحة ، عليك أن تنظر إلى نفسك كم قتلت وكم سرقت ونهبت، ثم اعتديت على حقوق ومقدرات الغير ، على كل سوف نلتقي في الجحيم قريبا !

صوّب المسدس نحوها ليغرس في صدرها رصاصات المّوت التي أرّخت لوفاة ونهاية شرّ إنسانة لا تحمل من الانسانية سوى الوصف ، انسانةٌ لم تأنس ولم تسعد بالحياة ، ولم تترك غيرها يفعل ، رهنت السعادة بيدها ورمست الهناء بإرادتها، وأهدرت كل الثّروة التي آلت إليها من عشيقها الهالك -على عشيقها الآخر الشاب الذي أُغرمت به بعد فرارها الأول - نيكيتا الوالد والعشيق والزّوج

iLovePDF

؟!...ماتت ولم يرحم الغادر للغادرة لهاثها الخائر المكدود، فانبرى إلى التمثيل بجثتها دونما رحمةٍ.

قتل الظالمُ الظالمَ ، وقتل لوفاريٌ بالوماريّةٌ في أرض عنهما أجنبية ، فلا عاش القاتل عيشة هنية .و لا مات المقتول موتة سرمدية ، وستشهد تلك الأرض الطاهرة العذراء الأبية !

مات السفاحون جميعا ، وانتهت معهم حقبة زمنية حبلى بالألم والوجع والحزن والقهر والخوف ، رحلوا إلى دار الحق والعدل ، ذهبوا إلى غير أوبة ، عاشوا لكنهم ما عاشوا ، كانوا قوة وما صاروا قوة .

سيخلِّد التاريخ لحظات موتهم بأحرف من ذهب وبماء من درر ، رحلوا وهم في مفترق طرق ، رحلوا وقد لفظت سيرهم وآثارهم إلى حيث مزابل التاريخ هم ومن شاكلهم ، رحلوا دون أن يتذوقوا ولن يتذوقوا حلاوة وطلاوة الزّفير الأخير .

iLovePDF

8.إنعتـــــــــــــاق

...واعتناقٌ.

iLovePDF

هنـاك فـي بـلاد موكـاردا حيـث تعـيش ماريـا وحيـدة برفقـة أخيهـا روبـارتو فـي منـزل فـاخر يعـج بكـل مـا لـذ وطـاب وبكـل مـا تشـتهيه الأنفـس وتلـذذه الأعـين ، خـدم وحشـم وسـيارات وعقـارات وأرصـدة ماليـة بنكيـة ...يحلـم أي إنسـان فـي الكـون أن يتملـك كـل هـذا النعـيم الـذي لـم يخطـر ببالهـا قـط أن تعـيش بـين جنباتـه أو أن تتقبضـه بيـدها لأنـه ملكها .

نظر الناس إليها فقالوا :

_يا لحظها ، يا ليتنا أوتينا مثل الذي عندها ، إنها لصاحبة حظ عظيم !

ردت عليهم فقالت :

_ وكيـف تحلـو الحيـاة بعـد رحيـل أم رؤوم حنـون ، كانـت لـي لحافـا أتـدثر بـه مـن كبـد الأيـام وضـنكها ، وأرضـا أفترشـها وسـماء أمتـع نـاظري بهـا ، وجسـدا أحتمـي بـه ، وقلبـا أشـكو إليـه كلمـا كسـرتني نوائـب الـدهر ، كيـف تزهـو الـدنيا وقـد غادرهـا والـدي الـذي ربـاني وكـان يخـاف علـيّ حتـى مـن نفسـي ، هـو أبـي رغـم أخطائـه وزلاتـه ، وزوج والـدتي الـذي أغـدق علينـا بكرمـه وجـوده الشـيء الكثيـر ، إنهـم أهلـي وخاصـتي و نبضـات مـن قلبـي ضـاعت ...ويـا حرقتـي ، وهـل المـال والـذّهب...يرجعون لـي الـذي رحل وذهبْ !!

مرّ زمان وتوقف المنجم عن الإنتاج نهائيا ، وتوقف العمل وسرّح العمال ، فلم يكن أمام روبارتو من بدٍّ سوى أن يقترح على أخته ماريا مغادرة البلد والتوجه إلى دولة سربيانا ، حيث يريد إنشاء معملٍ للسيارات ، لكن ماريا رفضت المقترح تحت حجة المهنة التي

iLovePDF

تمارس، والتي تجعلها مرتبطة بها وبمرضاها ، ما يصعّب بالنهاية الهجرة إلى دولة أخرى مهما كانت الظروف .

أمام هذا الرفض طلب روبارتو من أخته الصفح والعفو وبأنه قرر نهائيا الذهاب لاستثمار المال الذي عنده كي لا يضيع مزيداً من الوقت ، حيث أتمّ إجراءات السفر وغادر.

أصبحت الآن ماريا وحيدة ، تعيش لوحدها بعد أن انفك العقد وغادرت كل حباته ، إنها تزيد من وقت العمل بالعيادة حتى تتناسى الواقع الجديد الذي أضحى كابوسا مفزعا كالطّيف يلاحقها في كل مكان .

قررت ماريا بعد تفكير عميق أن تحوّل العلاج في عيادتها إلى مجاني ، وأن لا تتقاضى أي مقابل نظير عملها على أنها تحدد قائمة المرضى حتى تعطي لكل حالة حقها .

أشعرها التصرف بنوع من السّعادة ، فهي الآن تقوم بخدمة الناس مجانا ، وهو عمل إنساني أخلاقي يغرس البهجة في نفس فاعله قبل غيره .

لقد زاد يقينها بأن مدّ يدّ المساعدة للفقراء والمعوزين ، ينزّع بها نحو رفعة النفس وسموها ، بل إنه حل عملي سحري للرضا عليها ، وكذا لنسيان الماضي و عدم الارتهان لوسوسة ونزغ الشياطين ، لذا فإنها قررت التوجه نحو القيام بأعمال ذات بعد قيميٍ إنساني ، لا شيء يمنعها من ذلك حتما ، فالمال موجود والرأي السديد متاح ، والمناخ العام يبعث على ذلك .

قامت ماريا بإتمام الإجراءات القانونية رفقة محاميها و بوضع هياكل ومخططات رفقة مهندس تعاقدت معه من أجل بناء بعض المشاريع الخيرية الإنسانية مثل دور الحضانة وبناء ثلاثة مستشفيات ودُور للعجزة ...

iLovePDF

أكملت ماريا كل مخططها ووضعته موضع التنفيذ ، لقد سعت بكل قوتها رفقة بعض الشباب لإنهاء تلك المشاريع بسرعة البرق ، إنها تحلم بتشييدها وبوضعها حيز الخدمة .

كانت ماريا خلال كل هذه الفترة تعتريها لحظات من الاستغراق و التأمل والتفكير العميق ، تحب الخلوة ولو للحظات حتى تطلق العنان لمساحات واسعة من التمعن في كل شيء ، تختلجها الكثير من المشاعر الغريبة والمتناقضة ثم تشرق عليها أحاسيس أخر تتنسم على زورقها الماخر وسط أمواج رقيقة دافئة ، فتنفث في قلبها ريح طيبة وتنثر على صدرها ورود الأمل الجميل .

لم تكن ماريا من النوع الذي يقرأ الجرائد ليس تجاهلا وإنما لكثافة عملها وتشعب مصالحها ، لكنها وقعت عينها ذات صبيحة وهي في مكتب عملها على جريدة ممزقة لم تبق منها سوى بضع صفحات .

تناولتها لرميها لكنها بصرت صورة لجنود جيش يضربون أشخاصا وفوقها عنوان بالبنط العريض الاستعمار السرمادي يعيث فسادا في تروستراتا .

عنوان مثل هذا جعلها تقرأ المقال للنهاية ، لقد أدركت أن سرماديا التي قامت بوسيميا باحتلالها في ظرف أربعة عشر يوما تقوم باحتلال بلد اسمه تروستراتا .

وأن الحرب قد قامت فعليا منذ زهاء الستة سنوات وأن الثورة تحرز الكثير من الانتصارات الميدانية والدبلوماسية ، لكن المستعمر يحاول بكل قوته وهمجيته النيل منها وتصويرها للعالم وكأنها شأن داخلي وأن الهجومات عمل من عمل قطاع طرق .

iLovePDF

حــزّ الأمــر فــي نفــس ماريــا التــي أرادت فعــل شــيء أو تقــديم أي نــوع مــن المســاعدات ، لكنهــا أيقنــت بعــد ذلــك بــأن الأمــر أشــبه بالمســتحيل ، لأنــه وحســب مــا علمته فإن قوات الاستعمار قد أحكمت سيطرتها على جميع المنافذ .

علمــت أيضــا أن الاســتعمار أكثــر شراســة وأشــد تعنيفــا وهــدما مــن الاســتعمار البتروفيامي الذي استقلت منه موكاردا منذ ما يربو عن أربعة عشر عاما .

ظلــت مــدة مــن الــزّمن وهــي تحــرص علــى تلقــف أخبــار الثــورة التــي أعجبــت كثيــرا بهــا وبرجالاتهــا وبتنظيمهــا وبإصــرار اولئــك علــى إخــراج المســتعمر والاســتقلال مــن نيره وظلمه مهما كلف الأمر ومهما كان الثمن .

فــي أواخــر أيــام الثــورة قامــت ماريــا بالــدخول إلــى تروســتراتا بجــواز ســفر ســرمادي كمواطنــة ســرمادية تريــد الاســتقرار فيهــا ، إن مــا رأتــه بعينــه لهــو أبلــغ بكثيــر عمــا قرأته في المجلات والصحف .

علمــت أنــه فــي منطقــة أوراســيا شــرق تروســتراتا تــدور معــارك طاحنــة منــذ بدايــة الثــورة وبأنهــا معقلهــا الأول وبــأن أول رصاصــة تحريــر قــد انطلقــت مــن تلــك الجبــال الشــامخات الشــاهقات ، فقــررت زيارتهــا لعلمهــا أن مثــل هكــذا زيــارات قــد تكــون محفوفــة بمخــاطر جمّــة وصــعوبات بالغــةٍ لا قِبــل لهــا بهــا ، لكنهــا بعــزمٍ ويقــين قــررت وفعلت .

لقــد كانــت لملامحهــا فضــل كبيــر فــي تنقلهــا إلــى حيــث تشــاء دون أن تتكشّــف ، تواصــلت مــع بعــض النســوة فــى الريــف حيــث فهمــت الكثيــر مــن الخبايــا والأســرار وحفظت أسماء بعض الثوار .

لــم تقعــد ماريــا إلا زمنــاً قصــيراً للغايــة حتــى اســتقلت تروســتراتا مــن بــراثن الاســتعمار الغاشــم ، توجهــت إلــى أحــد مســاجد المنطقــة لتخبــر الإمــام برغبتهــا فــي

iLovePDF

اعتنـــاق الإســـلام وخلـــع الدّيانـــة البالوماريـــة بعـــد فتـــرة طويلـــة مـــن التفكيـــر والتأمـــل والتدبر .

وأمام ترحاب منقطع النظير سألها :

_أترغبين فعلا في اعتناق الإسلام ؟

_ نعم ، بكل تأكيد .

_ ما الذي دفعك لهذا ؟

_ قصـــة طويلـــة لا أســـتطيع ســـردها كلهـــا ، ربمـــا تعرفهـــا يومـــا مـــا ، وعلـــى كـــل فـــإن مـــن قـــرأ هـــذه الروايـــة ســـيعلم حقـــا مـــا الـــذي دفعنـــي لـــذلك . فـــي حقيقـــة المقـــال وبعـــد حيـــاة طويلـــة شـــاقة مضـــنية عرفـــت فيهـــا أبشـــع ضـــروب الظلـــم والضـــلال ، كنـــت أبحـــث عـــن شـــيء مـــا بـــداخلي ، عـــن نـــور يضـــئ العتمـــة التـــي فـــي طريقـــي ، عـــن خـــلاص حقيقـــي ، عـــن مـــلاذ آمـــنٍ ، أفـــر إليـــه فيـــأويني ، ورب مـــن كـــل شـــر يغيثنـــي ويحمينـــي ، رأيـــتهم جميعـــا أولئـــك الـــذين كـــانوا فـــي حيـــاتي وقـــد رحلـــوا إلـــى الآخـــرة بـــدون زاد ليـــوم المعـــاد ، قضـــوا إلـــى دار الحـــق ولا ديـــن ، فـــوج مـــن المغضـــوب علـــيهم وآخـــر مـــن الضـــالين ، وعنـــد الله لـــم يكونـــوا منتصـــرين ولا نـــاجين ، هلكـــت والـــدتي بالومـــاريـــة الدّيانـــة ووالـــدي كـــذلك ، مـــات زوج أمـــي راســـيّ الديانـــة ، تنقـــل أبـــي بـــين الـــديانات كلهـــا وأســـلم دون أن يســـلم وجهـــه لـــرب الكـــون لكنـــه بالنّهايـــة مـــا تـــذوّق طعـــم الإســـلام ، عرفـــت كثيـــرين فـــي الحيـــاة لا ملّـــة ولا ديـــن ولا طريـــق مســـتقيم ، قـــد أفضـــوا إلـــى مـــا قضـــوا ، لقـــد تجـــاوزت الأربعين من عمري ، ضاعت كلها كالرّميم .

_ حسنا ، أنتِ مقتنعة بالدُّخول إلى دين الإسلام، راغبةٌ في ذلك دونما إكراه ؟

_بكل تأكيد سيدي.

_ممتاز، إذن قولي بعدي(لا إله إلا الله).

_لا إله إلا الله .

iLovePDF

_محمدٌ رسول الله.

_ محمدٌ رسول الله .

بدأ تكبير وتهليل المصلين في المسجد ، والدُّموع تنهمر انهمارا من أعينهم ، والبسمات تعلو محياهم ،والرّحمات تملأ قلوبهم ، لم تستطع ماريا مغالبة دموعها ، أخيرا تحقق حلما ظل يراودها من مدة ، حلما أصبح حقيقة ، تمنّت لو تستطيع إرجاع بوصلة الزّمن إلى الوراء فيسلِم معها أبوها وأمها وزوج أمها ، ولكن قدر الله النافذ كان أقوى من كل الأمنيات . فهؤلاء لو انفقت ملءَ السّماوات والأرض ذهبا ليهتدوا ، لن يهتدوا ولو عاشوا وعمّروا الأرض ، عدد السّنين التي عمّرها نوح وآدم عليهما السلام أو أكثر، لن يهتدوا ولن يعرفوا للهداية طريق ، فالله أعلم بما في قلوبهم .

غيّرت ماريا اسمها إلى خديجة تيمُّنا بزوجة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

عادت خديجة إلى موكاردا تتفقد مشاريعها التي أقامتها في هذا البلد ، لتعود مرة أخرى إلى تروستراتا ، كان في بالها منذ مدّة رغبة في الزّواج ، فرغم الكّم الهائل من طلبات الزواج التي وصلتها طِوال حياتها إلا أنها قابلتها دوما بالرفض لإحساسها بعدم الاستقرار النّفسي ، ولعدم راحتها من كل الذين بادروا بالارتباط بها ، والآن في ما يبدو بدأت تحسُّ بتغير هائل في مسارات حياتها نحو الأفضل بعد اعتناقها وعن قناعة لدين الله الحق ، ثم لإعجابها بأحد الثُّوار الذين شاركوا في الحرب التحريرية بتروستراتا ، إنه مجاهد بألف رجل ، صنديد بطل مغوار يخافه الموت ولا يخافه هو ، رجلٌ معلق قلبه بالمساجد، عطوف على والديه وإخوته ، من الرّعيل الأول للثورة المظفرة ، يحبه الكبير والصغير ، يصغرها بحوالي عقدٍ من الزمن.

iLovePDF

قصدت خديجة (ماريا) المسجد الذي شهد اعتناقها للدين الإسلامي الحنيف ، من أجل الكلام مع الإمام في هذا الموضوع ، إنها تعتبره بمثابة الأخ والولي الشّرعي لها بعد وفاة والدها وهجرة أخيها .

قصّت له كل الحكاية :

_ سيدي الإمام، لا أهل لي وأنا أعتبرك كل أهلي، أنا أرجوا منك أن تبلّغ السيد محمد ياسين، لقد تركت لك معلومات عني، وأنا بانتظار الرّد؟

_ لا داعي للقلق سيدتي، أنت أختي في الله وسأفعل ما بوسعي لإتمام هذا المشروع الرّباني، هذه رسالتي، وهذا الأمر يدخل البّهجة والغبطة على قلوبنا جميعا.

انصرفت خديجة ، وعند صلاة المغرب وبعد التفرغ منها ، تكلم الإمام مع السيد محمد ياسين ، الذي طلب مهلة للسُّؤال عنها ، غير أن الإمام ـوللاستفاضة ـ أخبره بأنها قادمة من موكاردا وأصولها من بوخارين وهي حديثة عهد بالإسلام .

وأمام انبهاره بقوة شخصيتها ودخولها دين الحق وبجمالها- وهي سمات حرّي بأي رجل أن يغرم بها- رأى أنّه من الواجب أن يصلي صلاة الاستخارة وبعدها يتخذ قراراَ .

لم تصرّح ماريا سوى بمعلومات عامة عنها ، لكنها لم تظهر لأحد أنها من أثرياء مدينتها، وأنها تملك عقارات ومنقولات وأرصدة هامة ، كي لا تؤثر في قرار من تريده زوجا لها .

في الغد وعند صلاة الصبح ، أبلغ السيد محمد ياسين الإمام بقبوله عرض خديجة (ماريا) للزواج بها ، التقيا وكان الإمام ثالثهم ، تكلما وسمع كل منهما لشروط الآخر .

iLovePDF

علمت خديجة (ماريا) أن السيد محمد ياسين ، يريدها أن تستقر معه بتروستراتا ، فلم تمانع أبدا ، وبأنه لا يملك بيتا مستقلا ، وعليه فإنه يجب عليها السكن معه في بيت أبيه رفقة العائلة ، فقبلت كذلك .

قامت في ما بعد ، وقبل إتمام إجراءات الزواج ، بالسّفر مجددا إلى موكاردا لإتمام بعض الإجراءات المالية تمهيدا لاستقرارها ببلد محمد ياسين ، وكذا لتفقد مشاريعها الخيرية التي تركت بعض الشباب المسلمين يتعهدونها ويسهرون على القيام بكل شؤونها .

في يوم بهيج ، ليس ككل الأيام ، انطلقت الأفراح في كل مكان من القرية التي يعيش فيها السيد محمد ياسين ، لقد فعل الجيران والأهل المستحيل لإنجاح هذا العرس الذي يؤرخ لبداية عهد جديد تملئه السّعادة السّامقة التي ظلت رهينة الأدراج حقبة من الزّمن على تروستراتا بفعل المستعمر ، وعلى ماريا بفعل الحياة الوجيعة التي لونت حياتها السابقة بألوان تعيسة غامقة .

الآن أصبح الزواج أمرا واقعا ، بعد صيغة الإيجاب والقبول وبعد أن قبلت خديجة بالإمام وليّا شرعيا وتمت تسمية الصداق (آيات من القرآن وخاتم من فضة) ، تمت قراءة سورة الفاتحة ، لتصبح ماريا زوجة السيد محمد ياسين على كتاب الله و سنة رسوله صلّ الله عليه وسلّم .

في اليوم الأول من الزواج ،اقتربت خديجة من زوجها ودنت ، وببعض الكلمات والجمل بالعربية همست :

_ أودُّ أن أخبرك بشيء ؟

_ أنا هنا لسماعك حبيبتي، قولي ما تريدين قوله ؟

_ في الواقع أنا لم أخبرك بأمر من قبل، لا أريدك أن تغضب مني ؟

_لم ولن أغضب منك، أعدك.

iLovePDF

_ فـي الحقيقـة أنـا أملـك الكثيـر مـن الأمـلاك العقاريـة والمنقولـة ، ولـي مشـاريع بموكاردا ونقلت كثير منها إلى هنا ، بعد عدم موافقتك لي بالعيش سويا هناك .

_صـدقيني ، لـم أكـن أعـرف هـذا الأمـر ، لا أنكـر أن هـذا شـيء رائـع ، لكننـي والله لا أكتـرث لـه أبـدا ، أخترتـكِ وقبلـت بـك أنـتِ ، لا بمـا لـديكِ ، لا أمـانع فـي إبقائهـا أو إتمـام إجـراءات نقلهـا إلـى هنـا مادامـت كلهـا لوجـه الله وصـدقة جاريـة ، نحـن نعـيش هنـا والحمـد لله فـي نعمـة كبيـرة ومـا عنـدنا يكفينـا أبـد الـدّهر ، بالنهايـة كـل قـرار يعـود لك ، أنتِ من تملكين، وأنتِ وحدكِ من تقررين .

أصـيبت بالـذُّهول لمـا سـمعت، فعلـى غيـر العـادة تسـمع أو تُعـايش إنسـانا بهـذا التّرفـع والأنفـة، إنهـا تعـيش لحظـة حلـم تتمناهـا أن تكـون حقيقـة، وإن كانـت حقيقـة فإنها تحلم بأن تظلّ ولا تتغيّر.

لـم يمـر عـام حتـى حملـت ماريـا بمولودهـا الأول ، إنـه خبـر رائـع ومفـرح لهـا ولزوجهـا ، عقـدا العـزم علـى تسـميته إسـلام إن كـان طفـلا وأسـماء إن كانـت بنتـا ، شاءت الأقدار أن يكون الاثنين معا ، لقد رزقت بتوأم بهي الطّلعة والطّلة .

تعرضـت ماريـا خـلال وقـت لاحـق إلـى كثيـر مـن المسـائلات والـتُّهم الجزافيـة مـن بعـض المسـؤولين الموكـارديين ، سياسـية بغطـاء قـانوني حـول الجمعيـات والمؤسسـات الخيريـة التـي أنشـأتها هنـاك ، وقـد كـان الهـدف التضـييق عليهـا وجرّهـا نحـو الغلـق والتشـميع ، فـي وقـت كانـت تشـن فيـه حمـلات باطشـة لعرقلـة مثـل هكـذا نشاطات مهما كان بعدها القيمي لسبب بسيط وهو أنها مملوكة لإنسان مسلم .

قاومـت ماريـا كـل هـذا الطّوفـان مـن الظّلـم الطغيـان، واسـتطاعت كسـب عديـد القضـايا فـي هـذا الشـأن ، لكـن مـع تقـدمها فـي السّـن وزيـادة أعبـاء الحيـاة و المسـؤوليات فقـد قامـت بالتنـازل عنهـا لصـالح أحـد رجـال الأعمـال المسـلمين هنـاك

iLovePDF

لتسيّيرها ، والتفرغ نهائيا لخدمة أسرتها الصغيرة وكذا السّهر على السير الحسن لمشاريعها التي أنشأتها بتروستراتا .

كان الوقت يمر بسرعة البّرق، لقد حفظت ماريا القرآن الكريم، وتعلمت اللغة العربية بشكل طليق، ثم قامت بأداء فريضة الحج رفقة زوجها السيد محمد ياسين و والديه.

لقد رحلت العائلة الصغيرة إلى الاستقرار بعاصمة تروستراتا ، بعد وفاة والد ووالدة السيد محمد ياسين ، الذي أبلى وزوجه البلاء الحسن في البّر بهما، وتنفيذ طلباتهما حتى قبل أن ينطقاها ، لقد تعلمت ماريا من هذه العائلة المسلمة كثيرا من شؤون الحياة في جانب المعاملات وصلة الأرحام وطاعة الكبير وتوقير الصغير والتلاحم في السراء كما في الضراء ، تلك الجوانب المضيئة وغيرها لم تجد لها حضورا عندما كانت تعيش في براثن الجهل والظلم والكفر ، هذا هو الجانب المظلم في تلك الحياة الماديّة الآفلة ، لقد عرفت أن العتمة الدهماء التي كانت في قلبها- لا تزول مهما فعلت -إنما مردُّها إلى البعد عن الإسلام دين الله الباقي الناسخ لما قبله ، خلاص البشرية جمعاء وملاذها نحو الله ونحو قيِّم السعادة الأبدية وراحة البال السرمدية .

كبر الولدان إسلام وأسماء ، إنهما رائعين ، جمال أخاذ ، وملامح جذابة طاغية ، كانت (خديجة) تحرص كل الحرص على أن يواظبا على الكُتّاب لحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة كي لا يقعا في أخطاء الماضي ، تريد أن تنشئهم أجمل تنشئة دينية ، لا تريدهما أن يقعا في فخ الشيطنة والعفرتة والأبلسة التي وقع فيها أقرانهم و أترابهم وقد رأت ذلك رأي العين في صباها عندما كانت بإستريفانا ، تريد أن تلبسهما طوق النجاة والخلاص منذ نعومة أظفارهما ،لا عندما يأخذ بهما الزمان إلى غياهب المجهول .

iLovePDF

تزوجت أسماء شاباً ملتزماً من تروستراتا يحفظ القرآن و يعمل أستاذا للشريعة الإسلامية بأحد المدارس الحكومية ، بينما بقي إسلام أعزبا بسبب انشغاله بالسّهر على راحة أبوه المريض السيد محمد ياسين الذي أصيب بوعكة صحيّة ألزمته المكوث بالبيت مدة طويلة .

لقد أتيحت لإسلام عديد الفرص للزواج لكنه كان يمانع بشدة ، إنه يريد تسخير نفسه لخدمة والده ووالدته التي تقدمت بالعمر وأصبحت حركاتها بطيئة ومعدودة للغاية ، لذا فإن إسلام عليه أيضا مسؤولية السهر على مشاريع والدته ومعاهدتها ، لأجل ذلك كله فلا فراغ ولا وقت لديه ، إنه يتفرغ للجهاد الأكبر ، جهاد النفس وجهاد بر الوالدين وجهاد العمل الصالح وجهاد العبادة .

انتقل السيد محمد ياسين إلى الرفيق الأعلى ، تاركا وراءه سجلا حافلا ، فهو المجاهد الثوري ، والابن البار ، والزوج المخلص المحب الوفي ، والإنسان الإنسان .

توفي في فراشه، وزوجته ماريا تضع رأسها على صدره ، وعيونها مبيضّة من شدة اللّوعة والأسى في مصابها الجلل .

ومن القيام بشؤون الوالد الراحل إلى معاهدة أمه الحنون خديجة ظل إسلام - وقد تجاوز عقده الخامس -على عهده باقٍ ، يعالج والدته ، يغسل لها رجليها ويديها ويمشط لها شعرها ، وينظف لها ثيابها ومكانها ، يداعبها ويسليها ، بأحلى الأسماء يناديها ، بأغلى الهدايا يهاديها ، لا يغضبها بل دائما وإن أخطأت -هي- فهو من يرضيها .

في أحد الأيام نهضت ماريا من نومها لأداء صلاة الصبح ، قام إسلام كعادته بمساعدتها في وضوئها ، صلت في مقعدها الذي واظبت على الصلاة فيه بعد

iLovePDF

تـدهور حالتهـا الصـحية وعـدم قـدرتها علـى الوقـوف ، ثـم بقيـت كـذلك تـذكر أذكـار الصباح ويلهج لسانها بذكر الله ، إلى أن خلدت إلى النوم واستسلمت لسلطانه .

رأت فـي مـا يـراه النـائم كمّـا هـائلا مـن الأحـداث التـي مـرت عليهـا خـلال حياتهـا الطويلـة ، فـي ومضـاتٍ قصـيرة ، سـمعت أصـواتا بعيـدة تسـتغيث وتشـهق مـن قـوة البكـاء ، تكـاد تنقطـع أحبالهـا الصـوتية وتكـاد تـدفع بـآخر زفيـر لهـا ، اقتربـت إلـى حيـث تلـك الأصـوات ، فـإذا بهـا تـرى مشـهدا يشـيب لـه الولـدان ، أقـوام فـي النـار لـم تعـرف مـنهم أحـدا ، دنـت أكثـر فـإذا بهـا تـرى زفيتلانـا و جوزيـف وزوج أمهـا مـارك ووالـدها نيكيتـا والصـورة الأكثـر فظاعـة لأمهـا ناتاليـا وهـي تسـتغيث وتصـرخ ولا مجيـب ولا مغيث !!

ارتعبـت خديجـة مـن أهـوال هـذا المشـهد المرعـب القاسـي وحينهـا سـمعت صـوتا عن يمينها يناديها من مكان مضيء :

_ هلمي إلى هنا ، تعالي ، أسرعي ؟

_من أنت ناشدتك بالله ؟

_أنـا إيمانـك، أنـا عملـك الصـالح، أنـا انسـانيتك، هيـا معـي حيـث الجنـة مثـواك الأخير، إلى حيث يتنعم زوجك والعباد الصالحون.

_قادمةٌ أنا ...

هكـذا سـمع إسـلام صـوت والدتـه خديجـة في نزعهـا الأخيـر، وهـي فـي رؤياهـا بـين الحياة والموت، كان يريد بذل غاية جهده لإنقاذها ولكن...

إنهـا فـي لحظتهـا تلـك تنظـر إلـى مـاض فـات ومـات ، إلـى دنيـا زائلـة زائفـة ، إلـى أشـخاص عـرفتهم ، إلـى قـادم آت ، إلـى بـروج مشـيّدة وجنّـات خضِـرة تجـري مـن تحتهـا الأنهـار، وحقـول باسـمة سـامقةٌ غنّـاء ، وقطـوف دانيـة وارائـك ممتـدة ، إلـى

iLovePDF

دنيا ظنها الناس خالدة وهي تمرّ بهم مرّ السّحاب ، إلى نار يخلّد فيها الظالمون ، وإلى جنة يخلّد فيها الصالحون المؤمنون .

لقد فهم بل سمع إسلام كل هذه المعاني من فم أمه وكأنه يعيشها بنفسه، لحظةَ بلحظةٍ، خطوة بخطوةٍ .

استغرقت بعدها خديجة في غيبوبة ، ثم استفاقت استفاقة الحياة الدُّنيوية الأخيرة بعد أن مسح لها وجهها بقليل من ماء زمزم .

ابتسمت وقالت :

_ أوصيك بني بالإسلام خيرا، و أوصيك بالزّواج من فتاة مصرِّية تدعى ندى من مدينة المنصورة، ذات دينٍ وخلق -تربت يداك-، وحسبٍ ونسبٍ، فاتنة، باهرة، ذكية، أبيّة، ذات ملامح تركيّة...

صمتت برهة ، ثم طفقت تهمس له اسمها الثُّلاثي بالكامل ومحل سكنها ..قالت :

_ ابحث عنها، ستجدها بإذن الله.

قال لها إسلام في تودُّدٍ وانكسار:

_بما تشعرين الآن يا قرّة عيني ومهجة فؤادي ؟

ران الصّمت برهة على ثغرها، وفاضت عيونها بِعبَرات البّشر. وبعبارات النّصر.

_ إني أشم عبق النّسمات النّدية ، وثرى الحدائق البهيّة الوردية. غارت الدُّنيا إلى عدم، ودنى الزّفير الأخير ،فصار قاب قوسين أو أدنى...

كانت ماريا في آخر لحظات النّزع الأخير، حين قالت:

_ سبحان الله للموت سكرات. أحس نفسي وكأني طائر يسبح فوق زيت مغلي ، لا يستطيع التحليق فينجو بنفسه ، ولا بالزيت يغليه فيميته ويستريح .

iLovePDF

علـم إسـلام حينهـا أن والدتـه تحتضـر فعـلاً ، فتلـك السّـكرات، مـاهي إلا آخـر الابـتلاءات الدنيويـة ،يريـد الله عـزّ وجـل بهـا تنقيـة عبـده بهـا ، كمـا يُنقـى الثـوب الأبـيض مـن الـدّنس الـذي يعتريـه ،إنهـا تمهيـدٌ لنقلـه إلـى الحيـاة الخالـدة الأبديـة ، هنـاك في جنّات الخلد، حيث النعيم المقيم ،وحيث لذة النّظر إلى وجهه الكريم.

نظـرت ماريـا إلـى السّـماء ، وأشـرقت علـى وجههـا إشـراقة الأمـل المنشـود، ثـم قالت:

_لا إله إلا الله محمد رسول الله.

بعـدها ، أغفـت إغفـاءة الأبـد الـدّنيوي، وانتقلـت إلـى الرّفيـق الأعلـى، وفاضـت مـن المّوت إلى الحياة.

iLovePDF

قضت خديجة ، وفاضت روحها إلى الرفيق الأعلى ، رحلت والعالم تستعد عقارب ساعاته لحربٍ بيولوجيةٍ ماكرةٍ، حرب تؤرخ لثالث حربٍ عالمية البُعد ،استحالت لحظتها حياة الإنسان إلى لا قيمة ، حربٌ عاصرها وعايشها ابنها وزوجه ، حربٌ أفضت إلى سقوط عددٍ مهولٍ من الأرواح البريئة ، حربٌ جرّت العالم إلى الانكفاء على نفسه ، والعيش تحت رحمة الفزع والهلع ، حربٌ أذكت شواظٌ من لهبٍ لا دخان له أحرق القلوب والجيوب، حربٌ حرّكت سرادق غِلاظٌ شدادٌ لتحيط بالمجرمين الفجرة لسومهم سوء العذاب ، فتستحيل بهم الحياة من التّقلب في مترفها ومنعمها إلى التعفير وجوههم في التُّراب وبئس القرار، لا تكفكف دموعهم وقد تقرّحت عيونهم ، ولا ترتاح أفئدتهم ، تنضب من أرواحهم الحياة، فيحيون دون حياة ، لقد ذوى كل أمل فيهم إلى نهاية ، إنه سيناريو مخزٍ اليم وارهاصاتٌ صادمةٍ صاعقةٍ.

اندثر الوباء، وعادت الحياة إلى سياقاتها المعتادة ، لكن تجّار المَوت الذين يتوارثون الصّنيعة الموبقة ، كانوا يحاربون كل أمل في حياةٍ أجمل للإنسانية جمعاء ،انساقوا وراء غيّهم وشهواتهم وتباليس ابليس ، فانبروا يحضرون للإيقاع بالعالم إلى شفير جهنّم من جديد، إنها وسوم الحداثة البغيضة التي لطالما تشدّق بها شرذمة أشخاص ، إنها ارهاصات نهاية العالم ، وقيام السّاعة القادمُ -لا ريب -الذي تنزع الأنفس الماديّةُ الشرّيرة الماردة الفاجرة للخوض فيه، وتأبى التصديق والإيمان به .

كان ابن اسلام البّكر تيم – والرّجال بالرّجال تُذكر- أحد صُناع المَجد القادم التّليد ، وأحد القامات الباسقةِ والأيقونات السّامقة ، التي رصّع التّاريخ -حاضره وماضيه - اسمها بماء الذّهب ، حينما قاد حرباً شعواء على جيش مادي ماكر

iLovePDF

حاقد ، يجرُّه أحد نسل جوزيف البيولوجيين ...حيثُ العِرق الدّساسُ الذي ينتج سلالات الدّمار والنّار،التي تضع العالم برمته على كف عفريت.....

كان يتذكّر دائماً، لحظاته تلك وهو على ظهر فرسه ، والخيول من حوله في صهيل ورواحٍ ومجيء بأن الامبراطورية الرّومانية عمّرت فوق الأرض أكثر مما عمرت أمريكا الموصوفة منذ زمن ليس بالبعيد عنه بالعظمى، تهاوت أمريكا بعد أن حكمت العالم منفردة ردحا بسيطا جدا من الزمن لم يتجاوز المائة سنة ، و جثمت إمبراطورية روما الضاربة فوق صدر العالم أزيد من خمسمائة سنة أو يزيد و استطاعت التهام مساحات شاسعة من يابسة العالم الفسيح ..واستعباد سكانه وسبي نسائه واغتصاب خيراته ...

إن تيم مدرك لحظته تلك ، بأن الظلام العسعس زائل لا ريب ، وخيوط النور المأمول ستشعشع لامحالة، ومن قفار الصحراء الغابرة يولد الاسلام من جديد ، و يأتي برجاله ليحملوا النواميس الالهية و يحكموا العالم بالعدل بعد الظلم ، بالنّور بعد الظّلام...

_(فلا تيأس ..أو تحزن ،فإن الله معنا....)هكذا كان يخاطب تيم نفسه، ويخاطب كل مؤمنٍ راسخ معه -و زمان الملحمة الكبرى الخالدة حينها قد أقبلت بشائره ،وتنسّمت أجوائه - كلماتٌ خالداتٌ صدحت بها حنجرة تيم وكل من تبع أبد الدّهر،

إن تيم لم ولن تبرح كلمات جدته – التي سردها عليه والده- حين نزعها الأخير ، كلماتٌ عن حقيقة الآخرة الغالية الباقية ، عاش هكذا ورحل إلى العالم الآخر موقنٌ معترفٌ بالربوبيّة والعبودية لله وحده .يجاهد نفسه ويكبح شهواته ،

iLovePDF

ويعمـل بـالقول الإلاهـي الخالـد (ولقـدْ نعْلـمُ أنّـك يضِـيق صـدْرُك بِمـا يقُولُـون . فسـبِّحْ بحمْدِ ربِّك وكُن من السّاجدين. واعبُد ربّك حتى يأتيك اليقِين).

iLovePDF

9.أرواحُ الجنّة...

iLovePDF

هنـاك علـى فـراش المـوت ، يشـدُّ تـيم علـى يـد زوجتـه الغاليـة التـي فدتـه بكـل غـالٍ ونفـيس ، وعاشـت معـه كـل الحيـاة ، حلوهـا ومرّهـا ، بأسـها ورخائهـا، يقـصّ عليهـا ، مالم تنبس به شفتاه من قبل. في نزعه الأخير يردّد:

_أُشـهد الله الـذي سـجد لـه سـواد الليـل وبيـاض النّهـار ، أننـي أحببتـك حبّـاً جمّـاً صـافيا نقيـا لا تكـدِّره ولا تعكّـر صـفوه شـائبة، وأننـي بـذلت غايـة جهـدي فـي بـذل أوجـه السّـعادة لـك، سـامحيني إن قصـرتُ فـي حقـك يومـاً بـل لحظـة، لـم أُحـب بعـد زواجـي بـك إنسـانة ،حتـى فـي أحلـك الظـروف كنـت كـالفتى اليـافع أنـدفع إليـك لتحمينـي مـن ضـجر الحيـاة وصـعب العـيش ، أختبـئ وراء حنانـك الفيّـاض حـين تنتـابني الحاجـة ، كنـتِ انـتِ مـلاذي ومسـكني ودفـاي، وإنـي أرجـوا الله تعـالى أن تكـوني زوجتـي فـي الـدّنيا وفـي الجنة..

راحـلٌ أنـا اليـوم إلـى حيـث تسـكن أرواحٌ طـاهرةٌ ، إلـى حيـث يسـتقرُّ المجـد والخـلاص ، إلـى هنـاك فـي عليّـين حيـث جـدتي خديجـة ووالـدي إسـلام وكـل المـؤمنين الصـالحين الأولـين والآخـرين، وحسـن أولئـك رفيقا...أنـا لحظتـي هـذه ، أوصـيك بالأصـدقاء والجيـران خيـرا ، نعـم خيـرا مهمـا كانـت ديانـاتهم وولاءاتهـم ولغـاتهم ، ديننـا يحـث علـى الانسـانية والحـب والاحتـرام والتسـامح، فـي لبنـان قلـب يحتـوي كـل شـيء، قلـب تنـبض شـرايينه بالتسـامح والتعـايش والسـلام... نحلـم دائمـا كـي نعـيش بسـلام وحـب ووئـام ، نسـتلهم مـن أسـاطين الزّمـان اولئـك المخبتـين ،الـذين - تستغشـاهم شـآبيب الرّحمـة - عبـرا وقيّمـا، قبـل أن تـزف الآزفـة، وتثـور الـريح الصرصـر العاتيـة، لا بـد قبـل ذاك الوقـت مـن الأوبـة الـى المسـلك الصـحيح، والطريـق القويم.

iLovePDF

الفهرس

1.آخـــــــرالوصـــــــايا.....

ص 10

2.نذرأزمة

وبوادرفرقـة.....ص 15

3.ثلاثة جهنّم.....ص 54

iLovePDF

4.روبارتو وموكاردا.....ص 79

5.آخرفرصـــــــــــة..... ص 96

6.الأرض المقدسة ونهاية السّفاحين.....ص 139

7. عودة إبليس.....ص150

8.إنعتاق، واعتناق.....ص160

9.أرواح الجنّـــــــة.....ص178

iLovePDF

iLovePDF